

الياس مرقص  
المذهب الجدلي والمذهب الوضعي  
جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى: 1991

## الفصل الأول القضية والمسألة

1- في اعتقادي، يجب على الفكر العربي، لاسيما التقدمي، اليوم أن يختار اختياراً أولياً ونهائياً بين مذهبين: المذهب الوضعي والمذهب الجدلي.

بـ "الفكر العربي" أقصد فكر أهل الفكر والبحث والعلم أولاً، وفكر المثقفين والشباب المناضلين ثانياً، ووعي كل الناس ثالثاً.

بـ "التقدمي" أقصد: الفكر الماركسي، الفكر القومي، الفكر الليبرالي، العلماني، الديمقراطي العلماني، الثوري، الخ... وغيرها من الأسماء بلا فرق.

بـ "أولياً ونهائياً" أقصد مبدأً، حاكماً ومهيماً، وكل ما عدا هذا المبدأ يكون صوابه وصلاحه خاضعين لهذا للمبدأ.

بـ "مذهب" أقصد المعنى الحرفي العربي للكلمة: ذهب، يذهب، ذهاباً... ومذهباً. في المعرفة (وفي العمل)، البشر يذهبون إلى الواقع، المذهب تصوّر وطريقة (طريق).

هناك مذهبان، يجب الاختيار بينهما، في المنطلق (ليس بعده). صحيح أن المذاهب كثيرة. في ساحة التيارات والأسماء، نجد: المادية، والمادية الجدلية والمادية التاريخية والمثالية والميتافيزيقية التجريبية والعقلانية البراغماتية والدوغمائية و"الفكر القومي" و"الفكر الديني" و"الفكر الإسلامي" والديكارتي والنسبي والإطلاقي والأوروبي والشرقي والقديم والحديث الخ.

لكن أولاً: هناك مذهبان. وأحدهما باطل. وقد يكون للآخر وجود جدّي في الساحة الفكرية العربية، في ساحة المفكرين وفي المؤسسة الأيديولوجية والسياسية العامة والمتضاربة. في هذه الحال، تكون الساحة المذكورة باطلة بالأساس، ويكون الفكر العربي حتى إذا استطاع إنجاز شيء ما من علم وعلوم، قليل أو كثير، يكون عاجزاً عن تعبئة شعب من أجل عمل تاريخي. وفي الحاصل، ليس ثمة عمل ممكن وواجب سوى عمل تاريخي وكلي.

هذا العمل، والفكر المطلوب لأجله، بالغ الصعوبة والمشقة. وإذا كان ثمة "تعريف" أول يجب أن يعطى عن الجدل، فلنقل أن الجدل هو جهاد المعرفة. وذلك ضد كل معرفة هي، ربما، مجتهدة، وفقهية أيضاً (في القديم والحديث، لا فرق)، لكنها غير مجاهدة، أي أولاً غير مجاهدة لأصنام نفسها. جهاد المعرفة، الجدل، يوازيه. في الدين. جهاد النفس، الإيمان، التصوف. وليس ثمة

مستوى فكري . ذهني إلا وهو مرتكز في "اللاوعي" على مستوى روحي . نفسي . وعلى المثقف أن يختار بين موقفين في هذين المستويين اللذين يؤلفان جملة روحية . فكرية واحدة .  
ولئن كنت أضع الأمور على هذا الشكل الحدي، فلأن المسألة كمسألة غير واردة في الوعي العربي، كأن هذا الوعي عنده، وبالبداهة، جواب عن سؤال لم يكلف نفسه عناء طرحه . بالأصح له عاداته وهو حالة .

2- وأشكال هذه الحالة كثيرة . منها :

الإيمان بالعلم والعلوم، بدون سؤال عن الفلسفة أو عن الفن أو عن الدين الخ . وبالتالي بدون سؤال حقيقي عن كيان العلم نفسه . وبدون إقامة وزن لمقولة الفكر، الروح، النفسي، الخ، التي تتخطى كثيراً وبالمبدأ المعرفة العلمية .

أو الإيمان بالعقل، بدون سؤال عن معنى الكلمة: عقل . ومع الاعتقاد البديهي بأن فكرة العقل مستنفدة في "العقل العلمي" و"العقل الواقعي" ضد السحر مثلاً . أو ضد اللاهوت، بل ربما ضد العاطفة والشعور، ضد الحلم والخيال الخ، وضد المثالية، وبدون معرفة أن المثالية - كضلال - هي أولاً مذهب سحرية الكلمات، أية كلمة من الكلمات، وقد تكون هذه الكلمة هي كلمة عقل، كلمة علم، علوم، الخ .

أو الإيمان بالتاريخ والتقدم، بدون سؤال الكلمتين، بوصفهما معلومتين في وب هذا الإيمان نفسه، وبدون اعتبار التاريخ مفهوماً فلسفياً .

كذلك الطبيعة، الروح، الواقع، الشيء والأشياء، المادة الخ . كلها كلمات معلومة، على ما يبدو . وكذلك الكلمات السياسية المتداولة في السوق . يؤكدون عليها بقوة، ثم إما يستمرون ويضاعفون التأكيد بعد فقدانهم الإيمان، أو هم ينبذونها ويبدلون الأعلام، لكن - في الحالتين - بدون السؤال عن معنى الكلمات: فهي سهلة ومفهومة...

إن الركيزة الأساسية والطبيعية لهذا الموقف هو أن الإنسان، صاحب اللغة (التي هي أداة الفكر وشرط الاجتماع والإنتاج والحياة البشرية) وصانع أصنامها مع الأصنام الأخرى، "يحتاج" إلى كلمات - مخدرات يرتاح برأسه عليها، وينشئ، في العالم الجدلي والصراعي الشئني، قاموساً وثنياً (شئنياً) مانوياً .

هذا القاموس يختلف بين فئة وأخرى . لكن أسوأه، كقاموس وثني ومانوي، هو قاموس المثقف، فالإنسان العادي يشيئ الكلمات العادية بلا خطر حقيقي: صحيح أن كلمات طاولة، كرسي، بيت ألخ، ليست أشياء، لكنها على كل حال أسماء لأشياء، لأجسام مادية، مدركة بالحواس، واستخدام هذه الكلمات الشئنية لدى الإنسان العادي (أو في الحالة العادية) حاصل في حدود الحياة والعمل والمنفعة كمباشر وبدون دعوى نظرية أو سياسية . أما المثقف فيؤثّن كلمات كبيرة وعالية (ومتواترة

في التداول العام): مادة، روح، قانون، شرع، سبب، علم وعلوم، قيمة، طبقة، أمة، ثورة، واقع، جماهير، دين، دنيا، أصالة، حداثة، تراث، حزب الخ.

عند المثقف العربي، الواقع أشياء وأصناف أشياء وجواهر أو ماهيات: هذه "إحداثيات" قديمة جداً. والعلم ميادين، تخصصات، لهنّ قوانين ولهّنّ مصطلحات خاصة بهنّ: هذه "إحداثيات" جديدة، أوروبية ومتقدّمة، ناتج الإحداثيتين هو الحالة الفكرية العربية. في إطارها، يمكن للمثقف أن يختار الماهية الشرقية، الأصالة، الإسلامية، أو العربية - الإسلامية - العثمانية الخ، أو أن يختار الماهية الأوروبية الحديثة بل والأحدث من الحديثة، أو أن يختار ماهية مصرية، أو لبنانية، أو سورية، أو جزائرية، أو تونسية، الخ، أو أن يختار ... الماهية التطبيقية. المثقف الحديث والتقدمي والمثقف الذي بالعكس متكارهان، لكن قاعدتهما الروحية والفكرية واحدة، إنها منطق الهوية، بالمعنى الآنف، الهوية الأنواعية والأصنافية. "العلوم" ارتقاء وتعزيز لهذا المنطق، منطق الهوية الذي لا يتساءل عن معنى كلمة هوية، والذي يعتبر الهوية بطناً، في حين أنها علاقة وعقل و، بالأساس، كلمة (كونية).

القاعدة الروحية للوضعانية العربية هي الوثنية، الطوطمية، بل أقول: نوع من عرقية روحية وفكرية. هذه المسألة تتخطى - بمعنى ما فقط - موضوع هذا البحث: المذهب الوضعي، مسألته، والمذهب الجدلي إزاءه. هذا الملف كبير ومتنوع.

3- إن كتاب ألبرت حوراني الفكر العربي في العصر الليبرالي (بالعربية: الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار) تعامل، بشكل واضح وثمين، مع هذه القضية في إطار موضوعه: مع تبسيطنا الأمور - وهذا التبسيط ضروري تماماً - وجب علينا القول: إن الـ أوروبا التي عرفها مفكرو النهضة العرب هي فرنسا وإنكلترا القرن التاسع عشر، أوروبا الواصلة، الناجحة، المتقدمة، والفكر الأوروبي الذي عرفوه وأيدوه، إلى هذا الحد أو ذاك، وسواء أرادوه خالصاً أو أرادوا أن يجمعوه مع الإسلام المعتبر ديناً عقلياً وواقعياً وإيجابياً، هو الفكر الوضعي (الإيجابي) والوضعي الفرنسي والأنجلو سكسوني، هيغل، مثلاً، خارج البصر بالتمام؛ والفلسفة؛ وألمانيا. الفكر القومي العربي (ساطع الحصري مثلاً) يأخذ "ألمانيا" أي، تحديداً وحصرًا، "الفكر القومي" الألماني لفيشته وبعض المؤرخين لكنه يعيش في المناخ الوضعي الفرنسي. الإنكليزي. الفلسفة (بما فيها فيشته) منبوذة. القرن الثامن عشر (مثلاً فولتير) يتراجع، بعد رفاعة الطهطاوي.

أوروبا العصور الوسطى مجهولة، مرفوضة كموضوع للمعرفة، معتبرة عصور الظلام والمحارق في اختزال "يوحد" العصور ويلغي فكرة التاريخية، التشكل، التدرج الخ. لوثر، إذا ذُكر، فهو مقلص إلى خصم للكهنوت وللصور، أو (لدى الجناح اليساري) إلى رائد للعلمانية والحداثة: أن يكون هناك "خط" من لوثر إلى باخ، "خط" من لوثر إلى آدم سميث، "خط" من لوثر إلى الفلسفة الكلاسيكية

الألمانية، وأن يكون أساس هذا البسط هو الجوانبية، إذا الجوانبية - الكونية، فهذا بعيد عن إمكانية النظر، أن يكون الموضوع - أوروبا (أو، بلغة الألمان، الشيء - أوروبا!) مسألة كبيرة يمكن ويجب أن تخدم تأسيساً عربياً كلياً، في الشروط الواقعية والراهنة للعرب والعالم، هذا بعيد عن بؤرة الاهتمامات المتنوعة. لكن هذه القضية ذاتها تراجعت عند اللاحقين، الفكر "تسييس" أكثر فأكثر، تسييساً ذاتوياً وعاجزاً.

4 - جاءتنا أيضاً... الماركسية، المادية الجدلية.

رفعت السعيد، مؤرخ اليسار والاشتراكية في مصر، عاد إلى الأصول - أصول وبدائيات التاريخ المذكور في صعيد الفكر - وأعتقد نفسه فيلسوفاً. إذ تبين أن فلاناً من الجناح اليساري في النهضة كان "مادياً" مؤمناً بأزلية المادة المتحركة ونصيراً لداروين وتطور الأنواع، أطلق عليه ألقاب المادية الجدلية.

هذا نموذج عام في الفهم الماركسي: المادية الجدلية هي إيمان بأزلية المادة والحركة وبنظرية داروين.

ولعل هذا الإيمان بتطور الأنواع صعب أو شاق على رجال الدين، (هكذا كانت الحال أيضاً عند رجال الدين المسيحي في الغرب، بوجه عام، قبل ربع قرن، ولعلها ما زالت هكذا عند الكثير الكثير منهم اليوم)، لکه بالغ السهولة على جحافل الشباب المسييين والثوار في بلادنا العربية، وهو، من جهة أخرى، يدرس في مدارسنا أو في جامعاتنا، وما زال يدرس رغم الارتداد (وثمة، في بعض البلدان العربية، ارتداد جزئي عن هذا التدريس؛ خلال الثلاثين الماضية، بحكم تغيرات أو انحسارات في المناهج، لكن لها نتائج أيديولوجية)... على أي حال، إن الإيمان بتطور الأنواع ليس شاقاً على بوشنر Buchner! بوشنر حمل داروين على أكتافه، نشره وأذاعه في أوروبا، ولم يتفوق عليه أحد في هذا العمل، الإيجابي بالتأكيد. هذا لا يمنع ماركس وإنجلز ولينين من اعتباره، بالضبط، رائد وممثل ومبلور المادية المبتذلة matérialism vulgair: إنه أشهر رواد هذا المذهب الثلاثة: بوشنر، فوغت، مولشوت، وصاحب القول المأثور: "الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء"، القول الذي يلغي العمل الواعي بالمفاهيم (أي الجدل)، الذي يلغي الثنائية. التعارضية كائن/فكر، طبيعة/روح، مادة/وعي (وجدان، وعي) فيزيقي/نفسى، واقع/معرفة، عالم/تملك، الخ. إنجلز أيضاً يسمي بوشنر "المبشر المتجول بالإلحاد"، وفي هذا السياق. يبرر أو "يفهم" رفض فويرباخ النعت: المادية (إنجلز، لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية). إن داروين مهم جداً، وأن يكون الجناح اليساري في النهضة أيده مهم جداً، لكن هذا لا يؤلف بعد شيئاً يدعى الجدل.

إن مسألة الوضعوية أو الوضعانية لا يمكن أن ترد عند رفعت السعيد (ولا عند غالبية ماركسيي بلاد العرب). في هذه الحال - وهذا ما أريد قوله من الآن - إن محاولة فهم تاريخنا العربي:

النهضة والاستعمار والحركة الوطنية، الشيوعية والشيوعيون، الاستقلال والحقبة الناصرية، وما بعدها الخ، مهما تقدمت، فإنها ستكون باطلة بالأساس. بدون الجدل، لا يمكن أن نعرف واقعاً بهذا التعقيد التاريخي وهذه التناقضية...

الشيوعيون الأوائل والتالون لم ينحملوا، في معظم الأحوال، على نفس وضوعي وعلمي، لكن المشكلة، أحد وجوه المشكلة، هي الهوة بين أنفسهم غير الوضعوي وغير العلمي من جهة، ونظريتهم الفعلية، مذهبهم الوضعوي العلمي، أي اللاجدلي، من جهة أخرى: هذا الانشطار باطل، وباطل في شطريه. الحق، الصواب، هو: الجدل، هو فكرة المنطق. هذه نقطة راهنة بالتمام، ونطاقها بطبيعة الحال أوسع (بكثير) من دائرة الشيوعية والشيوعيين.

ومع ذلك، فلا بد لي هنا من وقفة عند الماركسية والماركسيين وعند الماركسية وأثرها الواسع جداً والملتبس جداً في الفكر العربي الراهن، لكي أقول: إذا كان ثمة من يعتقد بشكل أو آخر أن الماركسية هي الوضعية أو الإيجابية الحقيقية فهو مخطئ بالأساس. الماركسية، الآتية من هيغل، من الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (كنط. فيشته. شلنغ. هيغل)، من آدم سميث، من الثورة الفرنسية ومن الشيوعية الطوباوية، والمتمثلة في ماركس وإنجلز ولينين (بصرف النظر عن الماركسية الموجودة والواقعة والغالبة أو السائدة في دنيا السياسة والفكر الراهنة)، ليست هي الوضعوية المصححة أو العلمية الحقبة بل هي شيء آخر بالتمام. في الظرف الراهن، يجب أن تفهم كآنتي وضعوية.

حتى صيغة "العقلانية الحديثة"، أطروحة أن "المادية الجدلية هي العقلانية الحديثة"، هي صيغة وأطروحة ملتبسة تماماً.

إن مجلة la pensée، الفكر، الشيوعية الفرنسية، هي ومنذ عشرات السنين، أفضل مجلة ماركسية فرنسية، أكثرها جدية. وهي تضع تحت عنوان "الفكر" تعريفاً بها أو شعاراً لها يقول "مجلة العقلانية الحديثة". لكن! إن مقال جاك دوندت "اختفاء الأشياء في مادية ماركس" (انظر الواقع، العدد الخامس) إشارة واضحة تحمل، بالارتباط مع دلالات كثيرة، هذه الدلالة: "العقلانية الحديثة"، أي خط المجلة خلال أربعين سنة، هي بين بين، بين هيغل - ماركس وديكارت. كونت "العلوم الحديثة". هذا البين - بين عبث، هذا أولاً، وثانياً، كونت خليفة ديكارت في اتجاه وهيغل خليفته في الاتجاه المعاكس. كونت كاريكاتور للعقلانية.

يجب الاختيار، و"العقلانية الحديثة" صيغة ملتبسة، ملتبسة، مزدوجة، خاطئة، وذلك في شطريها، أي على العقل و"العقلانية"، وعلى "الحديثة". العقل. المنطق. الجدل الخ هذا قديم، عريق، ولا يطأطئ الرأس للحديث لمجرد أنه حديث، بل يخضعه ويطوعه، ويحيل عليه القديم، على الأساس، على الجذر، على الأرض Grund.

كذلك صيغة "العقلانية التامة أو الجامعة" total، رغم كونها مسوّغة أكثر من الصيغة السابقة، فهي ملتبسة أيضاً.

في الحالة الراهنة، العالمية والعربية، للوعي والفكر، يجب أن نفهم العقلانية الجدلية كآنتي . وضعوية.

5- عبدالله العروي، في كتابه الأيديولوجية العربية المعاصرة (دار الحقيقة)، أعطى تحليلات وخطوطاً ومسائل فائقة الأهمية. بيّن تأثير الوضعوية على فكر رجال النهضة العرب. بالنسبة له، كان هؤلاء على خط هذه الحالة الغربية "المتقدمة" وعلى خط هذا المذهب وهذا المناخ. وبالنسبة له، هذه الوضعوية الغربية انتكاس - من حيث الأساس - عن فكر العصر الأوروبي السابق. هذه نقطة يجب أن نسمّاها<sup>1</sup>، أن نشدّد عليها، أن ننتبين أبعادها.

في "الفكر"، "أوروبا" 1750-1850 متفوقة على أوروبا 1850-1950. مع أن هذه أوروبا (الثانية) متفوقة على تلك، في الصناعة، في التقنية والتكنولوجية، وفي العلوم. نوعاً ما، الأولى تؤسس للثانية. لكن الثانية - المتقدمة - مننكسة عن الأساس، مقلّصة في مستوى الجذر. بالطبع، هنا استخدمت كلمة "فكر" بمعنى محدّد، وأعطيت من باب الاصطلاح تواريخ محددة، و - أخيراً - أغفلت الماركسية وحركة العمال الثورية: لكن لنلاحظ فوراً أن هذه لم تنتصر في أوروبا الغربية. هذه المقارنة، يمكن أن أنقلها أيضاً إلى الحقبة التاريخية السابقة (ق15 و16-18) مهما تكن الفرق التعديلات اللازمة:

"فلسفة عصر النهضة"، فكر القرن السادس عشر، عصر العمالقة (حسب إنجلز) متفوق على العصر الذي يليه والذي هو أوج الأزمنة الحديثة الكلاسيكية (1600-1750، إذا جاز التحديد). عصر النهضة هو عصر اختراع الطباعة والاكتشافات الجغرافية، لوثر والإصلاح، الرسم الإيطالي والألماني، الفلاسفة: ياكوب بوهم وباراسيلس وجوردانو برونو وكامبانيلا، توماس مور وتوماس منتسر والشيوعية الطوباوية، كوبرنيك وفيزال، فيبيت وعلم الجبر الحديث... هذا العصر يؤسس، العصر التالي يبسط، ينمي، يتقدم، ويبني العلم الرياضي والعلم الطبيعي الرياضي (نيوتن)، الفلسفة العقلانية (ديكارت) والفلسفة التجريبية (لوك) الخ، لكنه - في حيثيات غير ثانوية - تقليص، استغناء عن مسائل وخطوط موجودة في العصر السابق. اعتباراً من منتصف القرن الثامن عشر، تتقلب الحال: كمنط، لافوازيه ولومونوسوف، عصر الأنوار، عودة الشيوعية الطوباوية، الفيزيوقراطيون وأدم سميث، غوته والفلسفة الكلاسيكية الألمانية....

6 - المسألة الوضعوية، السؤال أو الخيار وضعوية أم جدلية، أطرحه (وطرحته في ذهني منذ سنوات) بمناسبة الكتاب الثاني لعبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي (دار الحقيقة). أعتقد أن

1 - لعلها نثنتها) المحرر

في هذا الكتاب عشرين أو أربعين صفحة تستحق أن تحفظ غيباً (إن جاز مثل هذا التصرف)... لكنني أعتقد أيضاً أن العروي، في هذا الكتاب السهل نسبياً (إنه أكثر سهولة بالنسبة للقارئ من سلفه)، مترجع عن الكتاب الأول، وبالضبط ذاهب في اتجاه وضعوي، يظهر في أحكام العروي على بعض "التجارب" العربية... ولعل بحثي بهذا "آت"، بادئ ذي بدء وبين جملة أمور، من تلك اللحظة (قبل ربما عشر سنوات، لكنني قصدت بـ "لحظة" أكثر من المعنى الزمني!) التي أثار فيها كتاب العروي، هنا، خلافاً مهماً ومفيداً...

بالنسبة لي، كان هذا الخلاف أحد أهم روافد مسيرتي الفكرية في السبعينات. وإني أستأذن القارئ وأسمح لنفسي باختزال هذه القضية "الشخصية" على النحو التالي:

في سنة 1970 (السنة التي صدرت فيها ربما نصف مؤلفاتي)، شددت على الماركسية ك أنتي - اقتصادية. بالنسبة لي، هذا الموقع نهائي، بطبيعة الحال. وقد نقلني هذا الموقع، بشكل طبيعي، وعبر جهد متنوع. من قراءات وترجمات وأعمال منشورة وغير منشورة؛ من مناقشات فكرية و"مضاربات" نظرية إلخ. إلى موقع ثان، اختزله في صيغة: الجدل كأنتي وضعوية، وأسعى إلى الإفصاح عنه و"إيصاله" إلى القارئ منذ بضعة سنوات.

في "المرّة" الأولى (1970) أعطيت "الاقتصادية" معنى ليس هو المعنى المعطى لهذا المصطلح في الماركسية الغربية التي لها موقعها، لكنه - وأعتقد أنني بينت ذلك - المعنى الموافق للينين (لينين 1916 ولينين 1902، ولينين بوجه عام) والمرتبط أو المحكوم بالحالة العربية التي لبست واقع مجتمع، رأسمالية وإنتاج واستهلاك، بل هي مسألة ثورة، أي ثورة حقيقة من جهة (شعب، جماهير، مجتمع، وحدة عربية؛ تأسيس وتدرج) وحكاية "ثورة" من جهة أخرى (...). ضد الإمبريالية والصهيونية والرأسمالية والتأخر الخ.

في هذه المرّة - الجدل كأنتي وضعوية - أيضاً أعطي عن الوضعوية تأويلي الشخصي، وبصرف النظر عن أية مراجع. أياً تكن أصول وروافد هذا اللحن. ضد الوضعوية الظاهرة في مواقع لي سابقة، قديمة أو أحدث، فإنني الآن أبرز هذا الخط، داعياً المفكرين إلى الوقوف عليه: تقنياً أو تأييداً وتصحيحاً وتصويماً.

لقد تعاملت مع القضية. موضوع هذا البحث، بشكل سريع في إطار محدد، في ندوة القومية العربية والإسلام (طبع مركز دراسات الوحدة العربية)، وفي مواقع أخرى، ولحسن الحظ، ومن جهة ثانية، لقد طرحت مجلة الواقع، عملياً وفعلياً، المسألة والمصطلح. وضعوية، مذهب وضعي - بل وأحياناً اسم الرجل - أوغست كونت. في عدد من المقالات: زغال (تونس)، صونار (تركيا)، قرم (التمية والأيدولوجيا) الخ. هذه اللائحة غير مستنفدة. بات القارئ يعلم أن هناك علاقة من أوغست كونت إلى تونس، ومن أوغست كونت إلى تركيا، وهلم جرا في العالم المترامي الأرجاء: الوضعوية قائمة عند المعنيين بنهضة وتقدم الخ، وسواء كانوا يعرفون أو لا يعرفون اسمها أو اسم صاحبها



الفرنسي ... وأضيف، بطبيعة الحال، بحث ماركس "طريقة علم الاقتصاد السياسي"، ومقالة الفرنسي جاك دوندت "اختفاء الأشياء في مادية ماركس".

7- إن هذا المقال الأخير حافز مهم. إنه يبين أن المسألة التي يجب أن نجابهها بوعي ليست، بالمبدأ والأساس، مسألة عربية أو شرقية أو تأخرية على سبيل الحصر. إنها أيضاً فرنسية، ألمانية، أوروبية الخ، كلية وعالمية. وهي لا تنحصر في حقيقة المجتمع الرأسمالي، بل هي أيضاً وبشكل مجرد وكلية مسألة نظرية المعرفة: ما هي الأشياء وما هو الواقع؟ ما معنى ومعاني شيء، واقع، الخ. وأتمنى أن لا يسيء القارئ فهم مقال الكاتب الفرنسي (الماركسي، الشيوعي): إن جاك دوندت لم يحل ولم يذوب مشكلته وقضيته في مسألة ترجمة ماركس من الألمانية إلى الفرنسية. قال بشكل واضح أن الضلال الذي يعترض عليه قضية عامة ومبدئية، تتخطى مسألة "محض لغة": لا معنى ولا وجود لـ "محض لغة". الإنسان الألماني هو أيضاً يمكن أن يسحب ماركس من الموقف "الألماني" إلى موقف "فرنسي"، بمعنى ما، إن جاز هذا الاصطلاح! أقصد من الموقف الجدلي إلى الموقف "الوضعي"، "الإيجابي"، "العلمي" الخ. هكذا أضع الأمور، هذا ما أريد إبرازه والتأكيد عليه.

أمل أن يكون مقال جاك دوندت قرينة على انعطاف في الفكر الماركسي الفرنسي (وغيره). هناك، في باريس، توجد عادة "ماركسية" علموية حمقاء فحواها: الماركسية، الماركسية ماركس، هي - بالمعنى الألتوسيري للكلمات ومع تكبير الحرف الأول - هي "معرفة"، هي "نظرية"، "علم نظري"، "إنتاج لمعرفة"، الخ، هي "علم" و"معرفة علمية"، أما إنجلز ولينين فهما ملوثان بالإيديولوجيا، باللاهوت، و - هنا في مقال دوندت - بلوثر ومن "القریان المقدس". هذه العملية جزء من عملية أوسع بكثير: عملية اختراع نظرية لا شأن لها بماركس الأساسي. هذه "النظرية" (ألتوسير وآخرون) ركبت على الساحة البؤرية في عالم الثوار، و... ما زالت فاعلة بشكل ملموس. جاك دوندت يرد: هذه العدوى "اللوثرية" و"اللاهوتية" أصابت - لحسن الحظ - كارل ماركس أولاً! 8- بالطبع، هذه نقطة صغيرة، وإن كانت ذات دلالة. المسألة تتخطاها إلى ما لانهاية كنقطة مجردة ومعزولة. الخط أكبر بكثير، منطقياً وتاريخياً، من مسألة لوثر - هيغل - ماركس. إنها - وليس عندي وصف آخر - مسألة أزلية.

إن الجدل، قبل أن يكون اختراعاً من هيغل وماركس، أو من أرسطو وهيراكليت وهيغل وماركس وسلسلة لا حصر لها من فلاسفة وعلماء الشرق والغرب والشمال والجنوب على امتداد ثلاثة آلاف من السنين، هو الفكر والعقل والمعرفة. الجدل هو صفة "الإنسان العاقل"، الصانع والعاقل، أو بالأصح: العاقل والصانع. إن إحدى أهم مآثر لينين وإنجلز وماركس (أحد أعظم وجوه مآثرهم) هي أنهم أكدوا ذلك بشكل صريح. أذكر، على سبيل المثال، مقالة لينين "حول الجدل" في الدفاتر الفلسفية وجدل الطبيعة لإنجلز. بالضبط، لقد رفعوا لواء الفلسفة والفلاسفة. وإنجلز تحديداً رفع هذا اللواء ضد الوضعوي دوهرنغ وضد العلماء الإنكليز وغيرهم، ورفعوا لواء الإنسان، الإنسان العادي،

إنسان الجذر والأساس، وهذا الأساس كان هو الأساس لتاريخيتهم. تاريخيتهم ليست تعاقبية زمان مجردة بل بسط لمستويات كينونية في الزمان والمكان. لا تستقيم أية تاريخية في الفكر على غير قاعدة الجدل. ثمة عند لينين، على الأقل اعتباراً من سنة 1915 وحتى نهايته في سنة 1923، ثمة عنده في المستوى النظري الأعلى أو "الأبدأ"، وبالارتباط مع العمل الكبير، مع الثورة، منظوراتها في العالم غرباً وشرقاً، مع روسيا البالغة التقدم والبالغة التأخر، بالارتباط مع الانعطاف الكبير والأزمة الأكبر، ثمة عنده في المستوى الروحي والنظري هوى كبير، أقصد: انفعال وهوى وآلام passion، وهذا الهوى، هذه القضية هي الجدل. كتاباته الفلسفية وكتاباتة السياسية في سنة، 1916 مقالته عن "دور المادية المناضلة"، وصيته ("الرسالة إلى المؤتمر")، الخ، شواهد بليغة. في منظور العمل الثوري، إن التوتر بين الواقع / و/ الهدف لا يُحل، الهوة بينهما لا تُردم، بدون الجدل الذي هو المنطق. تلك هي النقطة الأولى، النقطة حاملة اللانهاية. الواقع جملة totalité، الجملة ليست مجموعة أجزاء. الواقع كل حي وليس ميكانيكا أشياء. العالم ذات Sujet وليس "موضوعاً" مجرداً، "مادة" للمعالجة بأيدي الذاتية الثورية.

9- الملف كبير. القضية هي قضية الفلسفة. بالفلسفة، أقصد شيئين:

الأول: نظرية المعرفة. أو هذا الذي يقول عنه لينين أنه "شيء واحد في كلمات ثلاث": المنطق، الجدل الغنوزيولوجيا (نظرية المعرفة) المادية. بموجب كتابات لينين الفلسفية في سنتي 1915-1916 تكون كل "المادية الجدلية والخ" حكاية قبيحة بدون الثالث الأنف: منطق، جدل، نظرية معرفة، المادية التي ليست، أولاً وبوعي تام، نظرية معرفة، ثم الموصوفة بأنها تصوّر عن الكون والطبيعة والمجتمع والتاريخ والمنعوتة أيضاً بالجدلية والتاريخية، إن هذه "النظرية المادية" التي ليست "نظرية المعرفة المادية"، هي حماقة لا حد لها. إنها في أيدي الثوريين، لاسيما الماركسيين، سلاح الذاتية، الإرادية، المثالية. فالمثالية هي، "لينين يؤكد هذا التعادل"، الذاتية. الماركسي يستخدم هذه الأداة الجاهزة، هذه النظرية المادية المزعومة التي تعطيه بالأساس وهم العصمة عن الضلال المثالي، ويعالج manipulation الواقع والبشرية، كمادة، في اتجاه الهدف. المثال.

أما "المنطق الجدلي" فهو حكاية ملتبسة، وذهابة ضد المنطق. المنطق واحد، إنه منطق الشكل والحد والمفهوم. مبدؤه أن الأسماء أسماء، والكلمات كلمات، وليحذر الإنسان من كلماته العظمى، من أصنام اللغة، وهذا المنطق هو الجدل. "جان هو إنسان"، هذا منطق، أبسط منطق، وهو جدل: إنه يؤكد وحدة بل هوية (تماثل) الضدين (الخاص والعام). هذا حسب لينين (مقالة "حول الجدل"). وحسب هيغل ولينين: "مبدأ الهوية، T هي T، أي كل الأشياء مختلفة (متخالفة)": لأن كل الأشياء وكل المفاهيم مختلفة، ولكي أبدأ، لذلك فأنا أبدأ ب T هي T. مبدأ المعرفة خروج من الاختلاط، فصل، قطع، مفهوم، حد.

في القاموس العربي الراهن، المانوي، "الفصل" إله شر وظلام وجهل. صحيح أن الماركسية الموجودة والفاعلة لم تساعد هذا الوعي. فعلت العكس تماماً، على هذه النقطة الأولية. كتاب ستالين الفلسفي الأشهر (المادية الجدلية والمادية التاريخية) يسير بدون فكرة المفهوم والمصطلح. مفهوم، ويمجد "الترابط"، بل و"ترابط الأشياء" أيضاً. الوعي العربي الحاضر يحب "التفاعل"، ويتصور أن الجدل هو التفاعل. كلاً! الجدل هو المنطق، والمنطق هو أولاً: فصل. لكن الوعي العربي يتصور وصلاً بلا فصل، وصلاً ليس فصلاً، يتصور علاقة ليست علاقة بين اثنين، ويتصور علاقات كثيرة جداً ومتنوعة جداً لكن ليس في عدادها علاقات من نوع: تعارض (تقابل)، أو تناقض، أو حرب. عنده، هذه ليست علاقات، وذلك بحكم التعريف، وبحكم الجدلية أيضاً...

حسب لينين، "الجدل هو نظرية المعرفة ل (هيغل و) الماركسية"، سواء بسواء، و"هذا الجانب للأمر الذي ليس جانباً بل هو جوهر الأمور قد أهمله بليخانوف ناهيك عن باقي الماركسيين" (مقالة "حول الجدل" في الدفاتر الفلسفية).

حين أقول نظرية المعرفة، أو الثالث منطق، جدل، نظرية معرفة، فإنني أوجه كلامي أيضاً ضد "الأيدولوجيا" والراكبين عليها. إن معظم الماركسيين، من الجيل الشاب وأحياناً من الجيل الكهل، الذين تعاملت معهم، ولو بشكل عابر، يعتقدون جدياً أن الفكر يتعادل مع الأيدولوجيا، إن الفكر هو الأيدولوجيا وأن الأيدولوجيا هي هي الفكر، وذلك سواء حصرنا الأيدولوجيا في "الأيدولوجيا الطبقيّة" (بحيث تكون المجتمعات اللاتبقيّة بلا أيدولوجيا!؟) أو رضوا - بصعوبة - تضمين الأيدولوجيا جوانب أيدولوجية أخرى (مثلاً: قومية). هذا التعادل باطل بالأساس. المنطق ليس، ليس قطعاً وإطلاقاً إيدولوجية، بل هو المنطق. إذا كان الثوار مستغنين عن المنطق حباً بالأيدولوجيا، فالإمبريالية الأمريكية ليست مستغنية. غالبية الجيل الماركسي الناشئ دون مستوى كتاب ستالين حول الماركسية في علم اللغة (1950)، الذي وضع، في حينه، حداً على الشطح الطبقي.

الأيدولوجيا الماركسية ليست، بوصفها كذلك، حاملة الحق (الحقيقة)، ولا الأيدولوجيا البرجوازية حاملة بالضرورة الباطل (الخطأ). وكمعرفة، الماركسية تصيب وتخطئ. حين تترك أساسها، أي الثالث اللينيني، فهي تخطئ على الطالع والنازل. حين تمسك هذا الأساس، يمكن أن تخطئ فرعياً، وأن تصحح الخطأ بمبدأ المراجعة الأزلي: فالأساس صحيح.

لينين يقول ويكرر: إن الضلال له مصدران أو نوعان من المصادر: (1) اجتماعية، طبقية، الخ. (2) غنوزيولوجية، معرفية. بتعبير آخر، هناك خطأ (ليس فقط لأن هناك مصلحة ومصالح، بل لأن هناك معرفة. لكن جحافل من ماركسيي بلاد العرب الباريسيين، لينينيين، تروتسكيين، ماويين، تقليديين، التوسيريين، يجهلون المصدر الثاني، و، مثلاً، ينسبون أخطاء وضلالات الساحة

العربية التقدمية لـ "البرجوازية الصغيرة"، "جراب الكردي" و"رأس التركي" (بالفرنسية، أو لنقل: كبش المحرقة!).

هذا الضلال الكبير - في جهة "الماركسيين" - هو مظهر للاقتصادوية. الاقتصادوية (ولنذكر بأن علم الاقتصاد السياسي هو، مبدئياً أو كمحور، علم علاقات الإنتاج) تحل العمل، الإنتاج، ونمط الإنتاج في مستوى (في جانب)، هو علاقات الإنتاج، الطبقات، صراع الطبقات، نظام الملكية، وتحل الروح، الفكر، الوعي والثقافة في الأيديولوجيا. إذا كانت في الحكم وإذا أرادت أن تتقيد بنفسها ومعتقداتها الصممي، فهي يمكن في المسألة الزراعية مثلاً، أن ترى "الإقطاعي" لا أن ترى الأرض، الطبيعة، العمل وشروطه، يمكن أن ترى الفلاح كفلاح - طبقة لا كفلاح وزارع وإنسان<sup>2</sup>؛ ويمكن، في المسألة التعليمية والثقافية، أن تحول التعليم والثقافة والمعرفة والأخلاق والفن وكل شيء فكري ورحي إلى أيديولوجيا. الاقتصادوية الأيديولوجية خصي للإنسان الصانع والعامل. ليس ما ينقصنا هو الأيديولوجيا بل المنطق والمعرفة والثقافة والأخلاق، وجداناً وتعاملاً، و... أيديولوجيا تحترم وتثمن بالأساس المنطق والمعرفة والثقافة والأخلاق. الاقتصادوية تتصور أن "الإنسان جملة العلاقات الاجتماعية" هذا معناه "علاقات الإنتاج" أي "الطبقات" وهذا باطل. فكرة "الاجتماع" أكثر أساسية وأكثر شمولاً وتضمناً من فكرة الطبقات. الطبقات كعملية وراهنية وسياسية تسقط بسقوط فكرة الاجتماع. نظرياً. صراع الطبقات يمكن أن يقود إلى مجتمع أرقى، ويمكن أن يقود إلى سقوط المجتمع وحسب<sup>3</sup>. لا توجد "حتمية"، توجد ضرورة يجب أن توعى، توجد ضرورة احتمالية، توجد تعينية (جملة تعينات وتعيينات).

حين أقول نظرية معرفة (غنوزيولوجيا)، فإنني أوجه كلامي أيضاً ضد الراكبين على نظرية العلم والعلوم وعلى نظرية النظرية، أي على "الإبيستيمولوجيا". ضد هذا القصف الإبيستيمولوجي، أقول إن نظرية المعرفة هي، مبدئياً، القاسم المشترك بي لينين وأينشتاين والبدوي والحذاء: المتصوف ياكوب بوهم، أبو جميع الفلاسفة الألمان، سيد التصوف والفلسفة، كان أيضاً سيد حرفة صناعة الأحذية<sup>4</sup>. لكي يرى الإنسان أمورنا، أمور العرب والعالم، لكي يعي تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، لكي يحمل مصيره، إنه ليس بحاجة إلى أن يكون خريج السوربون أو غيرها. لقد أعطت الجامعات (بالتضافر مع أشياء أخرى) ماركس ولينين وعدداً كبيراً من المفكرين والمناضلين الممتازين، لكنها أعطت أيضاً عدداً لا يحصى من التافهين ومن الحمقى. في ساحتنا، في سنة 1970 مثلاً، وقبلها وبعدها، ملايين من الناس العاديين والأميين رأوا رؤية صاحبة، وألوف من الجامعيين والمتقنين

<sup>2</sup> - بتعبير آخر: إنها تغرق في الثنائية إقطاعي - فلاح، المقطوعة، المجردة، المحولة ماهوياً رغم أنف الواقع.

<sup>3</sup> - voir Manif. Commun, 1er chap.

<sup>4</sup> - في كتاب ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة (دار الحقيقة)، يجد القارئ صفحة فلسفية عن هذه الحرفة!

رأوا رؤية هاذية (بعضهم جاء من باريس، ومع ثقافة واسعة جداً. هكذا جيرار شاليان في سنة 1970)<sup>5</sup>.

ثانياً: الشيء الثاني الذي أقصده بالفلسفة، هو تصور للإنسان وتاريخه ومصائره اليوم. وثمة عند ماركس وإنجلز ولينين، لكن أيضاً عند مئات الآخرين قبلهم (وبعدهم)، تصور للإنسان والتاريخ ومصائره. المزية الأولى لتصور ماركس وإنجلز ولينين هي أنه، في شروط جديدة ومحددة لتاريخ البشرية، تصور هادف، منهج وسلاح لعمل راهن، ممكن وواجب. المزية الثانية هي أنه، بالتأكيد، تصور علمي. وكل ما يبتعد عنه كتصور (كمفهوم أساسي) تصور غير علمي. لكن "علمي" هذا معناه أنه قابل لصواب وخطأ، مستوجب لتصحيح، لمتابعة، لتعميق. هذا التصور هو فلسفة.

القول بأن ماركس أنهى "فلسفة التاريخ"، وأحل محلها "علم التاريخ"، - وهو قول يمكن أن يستند إلى تصريحات من ماركس - إن هذا القول، في الشروط الراهنة للعلمية الماركسية، ملتبس ويحمل أكثر من ضلال. السؤال عن مصائر الإنسان لم يخفف من وجدان وفكر ماركس. لا في البداية ولا في الوسط ولا في النهاية. مسودات الرسالة إلى فيرا زاسوليتش شاهدة. ماركس لم يتخل عن مفهوم الانخلاع (التغرب). تعامله الفائق العملية مع الاقتصاد السياسي هو تعامل نقدي تاريخي، تاريخي وفلسفي بأن. إن ما يستحق أن يبرز هو قول ماركس "أنا لست ماركسياً أو ماركسويًا marxiste" أي إدانته للتمذهب. إدانته المسبقة لأجيال المتمذهبين. هذا التمذهب هل هو الفلسفة؟ في رأيي إنه دائماً انقطاع عن الجدل، وضعوية، اقتصادية، علموية في شكل "علم المادية التاريخية" و"قوانين" هذا العلم، أو في شكل "علم الاقتصاد الماركسي وقوانينه"، أو في الثلاثين سنة الأخيرة: قوانين التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا، القوانين العامة لحركة التحرر الوطني، وما إلى ذلك من "قوانين". "الفلسفة" نفسها. إذا ذكر هذا المصطلح. تكون "الفلسفة العلمية" وتتكلم بلغة "القوانين. إذا كانت الأسماء (حسب هيراكليت) هي قوانين الطبيعة، فإن هذه "القوانين" باتت، في شطر كبير، محض أسماء! على الفلسفة الماركسية أن تتكلم لا بلغة "القوانين" بل بلغة المفاهيم، وأن تعي أن عنصرها، العنصر الذي تعيش فيه ومنه هو المطلق، كما عنصر السمكة هو الماء. على الفلسفة الماركسية، كي تكون فلسفة، أن تغادر يابسة الوضعانية.

5 - جيرار شاليان: ثقافة متقدمة من فرنسا، وجاء و"رأى" بعينه "رأى" الساحة"، رأي سلاحاً مادياً ومنظمات ولافتات وماركسية لينينية الخ). بين جملة أمور: إنه في كتاب (المقاومة الفلسطينية، دار الطليعة) مع ح ش ت ف، ضد ج ش ت ف، لكنه، يضيف في الأخير، صفحة منفردة مغايرة، يبدو أنه اكتشف أن ج ش ت ف هي أيضاً ماركسية لينينية!! غطس في عالم الرؤية، عالم الأشياء والرموز، أي مملكة المحسوس أو الملموس بشكلها. فيما بعد، جاء كتابه الأساطير الثورية للعالم الثالث Mythes revol du monde????? (بالفرنسية) تراجعاً باهراً ومبالغاً بأحد المعاني علماً بأن جيرار شاليان هو، بلا ريب، أفضل مراراً من أمثاله الكثيرين. إنه مفكر جدي لكن يجب أن أكرر: شاليان (عدا عن أمثاله) ليس خريج الأزهر أو النجف ولا ابن خيام البادية، إنه خريج السوربون أو غيرها وابن فرنسا وأوروبا والماركسية وما شابه...

المطلق والنسبي ليسا شيئيين، بل مفهومان وحدّان. المطلق حد، حد يحد النسبي: هذه وظيفته الأولى، رسالته الأسمى. ومن ليس عنده، في روحه وفكره، المطلق، يحول نسبيّه إلى مطلق. وذلك هو الاستبدال. نسبيُّه المطلق (هو) بسط لذاتويته المعالجة للعالم ك "مادة"...

إذن: تصور للإنسان وتاريخه ومصائرهم. هذا، في معظم الحالات، مفقود في الفكر العربي الحاضر. لئن كانت ماركسية ستالين وآخرين قد أعطت صورة مغلوبة عن وحدة تاريخ الإنسان، فإن قسماً كبيراً من الفكر العربي يتبنى، فعلياً وعملياً، موقف نفي لهذه الوحدة، حتى إذا كان، نظرياً ولفظياً، يردد بلا كلل كلمة "إنسان" مفرداً وجمعاً، وكلمة كونية التي يفهمها ككونية مسطوحه مباشرة على امتداد الكرة الأرضية، أو بالأصح على امتداد جزء منها: هناك شرق وغرب، نحن (العرب، أو العرب والمسلمون) الشرق. فكرة النوع الإنساني ملغاة، أي ليس لها قيمة نظرية وتاريخية. إن البشر بشر وإن التاريخ تاريخهم، دراما ومأساة، وعمران وتقدم، وتغيير للأشكال، وسببية ومعقولة، هذا مرفوض بالأساس. ويسخر الدين لهذا الرفض ...

من المحال والعبث والحمافة أن نخرج خارج تاريخ البشرية، خارج مصائر الإنسان اليوم: هذا التاريخ الكوني لا يخرج: إما أن نصير ذاتاً وفاعلاً وصانعاً له وفيه وإما أن نكون وأن نعود كما كنا قبل قرن مادة وموضوعاً وسامداً لتاريخ ننخلع عنه وينخلع عنا.

إن تصور ماركس وانجلز ولينين تصور هادف وراهن. إن الماركسية، قبل أن تكون علم كذا وعلم كيت، هي منهج عمل ثوري جامع ومبادرة تاريخية كلية، في شروط محددة لواقع أو عالم هو بذاته ذات وحياة وعقل. واقع ليس "مادة" بلا شكل ويشكلها الثوري من رأسه، عالم ليس "موضوعاً" مجرداً وميتاً، ليس "أشياء" مربوطة وتربط، ليس جلدأ أو خشباً، ولا آلة أو قطاراً، الخ، بل هو موضوع - ذات Sujet. حسب نظرية المعرفة، نظرية المعرفة المتطلعة إلى عمل بهذا الحجم. الثورة، إن الموضوعية أو الموضوعية الحقيقية هي، بالضبط، الاعتراف بذات الموضوع وبذاتيته، "ضد" ذاتية الرأس البشري (فرد، جماعة، حزب، الخ). هذا الاعتراف هو لحظة الصفر، حاملة اللانهاية، هو مبدأ التجرد والتجريد والمسح حامل مبدأ وحقيقة أن العالم، أن الواقع، أن كل واقع، بما أنه واقع، هو كل un tout، هو جملة totalité، أي، ليس قانوناً، ليس مفهوماً، ليس كلمة. والرأس (der kopf) هو الذي يؤسس هذا الاعتراف ويبني هذه المعرفة. وكل مخابر الأرض ومناهج الجامعات إن هي إلا أدوات لهذا الرأس، الذي يجب أن يحكمها كراس بتمامه.

حسب منطوق "طريقة علم الاقتصاد السياسي" لكارل ماركس (مدخل، 1857 مجلة الواقع، العدد الرابع)، ليس عند ماركس: من جهة العلم science أو المعرفة العلمية النيرة والباهرة، ومن الجهة الثانية ظلام الباقي، بل عنده التملك appropriation, Aneignung، تملك الإنسان للعالم. عالمه. وأشكال هذا التملك: الفكر الناظر النظري (إذاً ليس "العلم". "العلوم"، بل الفلسفة. و. العلوم)، الفن، الدين، الروح العلمية (العمل، الأخلاق).

إن الهدف الذي يضعه ماركس وإنجلز للتاريخ، راهناً هدف على ما يكفي من الوضوح، وهو هدف. لقد درجت العلموية الماركسية الأخيرة على النضال باسم "العلمية" وباسم ماركس الصحيح أو المصحح، على النضال ضد "الغائية"، ضد "التيلولوجية"، إلغاءً لفكرة الهدف (التوسير، على سبيل المثال، أعطى "تعريفاً" للعمل أو الممارسة بدون مقولة الهدف؛ مع حذفها وإلغائها). ليس فقط فكرة الهدف، عند ماركس أو إنجلز أو لينين، جوهرية في فكرة العمل، (فاعلية الإنسان الذي اتخذ هدفاً، لينين في خلاصة منطق هيغل)، وفي فكرة الشغل أساس علم الاقتصاد السياسي الماركسي، بل إن هدف المشروع الثوري الماركسي واضح ومصريح به بأشكال مختلفة، فلسفية، أدبية، علمية. وهو يأخذ مكانه في كل تصور ماركس لتاريخ الإنسان والاجتماع الإنساني.

هناك ثورتان كبيرتان في هذا التاريخ: 1) ظهور الإنسان - النوع، تشكله الطويل كنوع بيولوجي هو الإنسان العاقل، ظهور مقولة الشغل، انفراز الإنسان عن الحيوان، عن الطبيعة الخ. 2) الثورة المنشودة، الإنسان كمجتمع، البشرية الاجتماعية، أو المجتمع المؤنس<sup>6</sup>. كل حديث عن الاشتراكية، عن الشيوعية، بعد نسيان هذا المعنى أو هذا القصد، باطل.

"بين" هاتين الثورتين الكبيرتين في التاريخ - المنطق، هناك ثورة وسيطة، بين النوع الإنساني والمجتمع الإنساني أو المؤنس، هناك المجتمع المدني *societe civile, burgerliche Gesellschaft*. هذا المجتمع المدني يبلغ تمامه في المجتمع البرجوازي الحديث، في أوروبا. أصوله، بذوره، جوانبه قديمة وعالمية. تاريخه طويل جداً ومتنوع. تاريخ الإنسان بعد ظهور النوع هو، جوهرياً، في المنظور العريض والبسيط، تاريخ بروز وعدم بروز المجتمع المدني. "يمكن" أن نبدأ هذا التاريخ بالثورة النيوليتية، بظهور القرى في بلاد الشام بين الألف التاسع والألف السابع قبل الميلاد؛ يمكن أن نتابع وأن ننظر في أوغاريت (الألف الثاني ق.م): هنا: إن تنوع الأعمال، تعدد الحرف والمهن والنقابات، يستحضر في الذهن حديث ماركس عن هذا الموضوع الذي هو موضوع كلية الشغل ذاتها كواقع فعلي بصدد مجتمعات الغرب المتقدمة قبيل الثورة الصناعية بحصر المعنى... يمكن أن ننظر في روما والإمبراطورية الرومانية، في العصر الأموي والعصر العباسي، في الصين والإثيقا الكونفوشية الخ الخ. ليس التاريخ تعاقباً على خط. إن فكرة منطق التاريخ (هيغل وماركس، وبصرف النظر عن جميع الفروق أو التعارضات) تعني، بين جملة أمور، أن التاريخ ليس تعاقباً على خط. بتعبير آخر: الكائن (L'etre، الكينونة) تاريخي، وهذا يعني أن له الصفة التاريخية كصفة جوهرية تماماً، لكنه لا يعني أن هذه الصفة تستنفده. حسب علم الأنتروبولوجيا، "الإنسان العاقل" يملك منذ ظهوره خصائص نفسية واحدة وإمكانات ذهنية واحدة<sup>7</sup>.

6 - انظر بشكل خاص: جدل الطبيعة، المدخل، ومقالة دور الشغل في تحوّل القرد إلى إنسان.  
7 - أشدد على "إمكانات". هذا - إمكان، إمكانات - مفهوم مجرد، يحتاج لكي يوعي إلى قدرة على التجرد والتجريد.

وإلا فلنحذف المقولة: الإنسان العاقل. الاعتقاد بأن العرب من طينة أخرى، إنهم في غنى عن أو عاجزون عن المجتمع المدني اعتقاد لا يستند إلى أساس<sup>8</sup>..

لكن تاريخ الإنسان، اليوم، يتخطى كثيراً مهمة تكوين وإتمام المجتمع المدني. أو بالأصح يتجاوزها بالمعنى الهيجلي للكلمة، يبقيا ويحذفها ويتخطاها بأن. في حيثيات عدة، المجتمع الغربي منتكس عن المجتمع المدني. البرجوازي السابق: الجانب التذري والانخلاعي يغلب أكثر فأكثر، ويحمل توتاليتريات جديدة وقديمة، العالم الاجتماعي الإمبريالي مأزوم. التاريخ يطلب التجاوز، الانعطاف الأكبر.

غير أن الثورة المطلوبة، عالمياً، لا يمكن إلا أن تركز على أساس المحرز الإيجابي الكبير للمجتمع المدني. وهذا المحرز الإيجابي ليس البتة محصوراً في الجانب التقني والمادي الخ، ولا الجانب التقني والمادي هو بالضرورة ودوماً نور. "أوروبا" لحظة (moment) كبيرة وحيوية وحاسمة في منطق البسط أو النمو التاريخي للإنسان ككل، للعرب، للجميع<sup>9</sup>. التعامل مع هذا "الشيء الكبير بإدارة الظهر، باللحن، أو بالركوع، أو التعامل معه بالانبهار والحرب، بالسجال العنيف الأبولوجيتيقي الذي يخفي أو لا يخفي الانبهار، موقف ألق ويلحق ضرراً كبيراً بالوعي العربي: إنه الضياع.

لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية في بلادنا "مناقضة" لأمر بارزة في صميم التاريخ الأوروبي: الكومونات (البلديات)، فكرة الحق والقانون والحق الطبيعي، ثنائية الوطن والمواطن، الفرد والمجتمع، العمل والتعامل، نقابات العمال في القرنين 19 و20 "الحريات البرجوازية".

لكن المجتمع المدني ليس نهاية المطاف في تاريخ الإنسان وتقدمه. إنجلز يضع كمهمة للتاريخ: حلول "إدارة الأشياء" محل "حكم البشر"<sup>10</sup>، تصالح الإنسان "مع ذاته" و"مع الطبيعة"<sup>11</sup>، بلوغ تطابق بين النتائج الفعلية والبعيدة والعامّة لأعمال البشر وغاياتهم الذاتية والمباشرة<sup>12</sup>، هذه الصيغ تحدد اتجاهاً، تفتح مسائل الخ. لكن طيها يكون طياً للماركسية.

لا أعتقد (ولا أرى ما يدفعني جدياً إلى الاعتقاد) بأن مارس ("المجتمع المؤنسن"، "الإنسانية الصائرة مجتمعاً")<sup>13</sup>، وإنجلز، ولينين، بشروا بفردوس قادم، بجنة على الأرض. لا أعتقد أنهم آمنوا بمستقبل بشري دنيوي. يزول فيه كل الشر - الداء. لكنهم آمنوا بمستقبل ممكن وواجب لا يكون فيه فقر، جوع، حرب، استغلال اقتصادي وقهر سياسي من الإنسان للإنسان. هذا ليس كل القهر، لكنه معظم القهر المتجلي في التاريخ كتاريخ. وهذا راهن. إنه اليوم راهن أكثر أيضاً مما كان راهناً

8 - كما ذكرت، في مناسبات سابقة: إن المبادئ الإسلامية القائلة كما تكونوا يولى عليكم، أنتم أعلم بأمر دنياكم مني (و"أمر" بالمفرد: كل، جملة، وليس قطعات لميكانيكا)، الخ ناطقة بحد ذاتها. حتى القول: الإسلام دين ودنيا، ليس بالضرورة إنشاء لوحدة اختلاطية، كما يجعله الكثيرون، بل هو منطقياً بالعكس: لا وصل بلا فصل، لا وحدة عقلية بلا تعارض (تقابل).

9 - أعتقد أن هذا الخط بمجموعه وجوانبه واضح تماماً في مجمل كتابات ماركس، وليس ثمة ما يبرر الاستغناء عن أي جزء منه.

10 - الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية.

11 - إنجلز الشاب، وارد في مخطوطات 1844 لماركس (طبع وزارة الثقافة - دمشق)

12 - إنجلز "دور الشغل في تحول الفرد إلى إنسان".

13 - الاطروحات عن فويرباخ ولاسيما الأطروحة الأخيرة.



في عصر ماركس أو لينين. العالم مأزوم، بلغ منعطفاً هو أكبر منعطف في تاريخه. طاقة الإنسان للخير والشر بلغت مبلغاً لم تبلغه من قبل... الأسلحة النووية، نهب الطبيعة ومخزون الأرض، تلوث البيئة، سلطان الأجهزة، أخلاق ولا أخلاق العلم (هذه المسألة يطرحها اليوم علماء الغرب والاتحاد السوفياتي...): إن مسألة الغاية والمآل تتبع من كل جهة وصوب. كل صيغ ماركس وإنجلز راهنة، بما فيها الصيغة القائلة عن الهدف: "الانتقال مضي البشرية من ما قبل تاريخها إلى تاريخها الحق". الماركسية ثمنت ومجدت الإنسان البروميثيئي، لكنها وضعت حداً، أقامت الحد على البروميثيئية. في هذه الحيثية، إنها تبدو لي أقرب إلى رؤية الدين التوحيدي منها إلى الغرب البرجوازي، التقدمي المتقائل.

لا أرى أنها أقامت مسلّمة أو مصادرة من نوع: الإنسان خير بطبيعته، إن الإنسان خير وحسب. هذه الفكرة هي لجان جاك روسو (الجدلي الكبير)، ليست لماركس. إذا لم تخني الذاكرة، فإن إسحق دويتشر أشار إلى هذه النقطة غير الثانوية. يبدو لي أن الماركسية تتوخى الخير، مزيداً من الخير وتقليصاً للشر، من الاجتماع البشري، ليس من الغريزة والفطرة والطبع. الغريزة والفطرة والطبيعة البشرية مزدوجة. "الإنسان جملة العلاقات الاجتماعية"، وله وعليه أن يتقدم.

إن هيمنة الفقر والجوع على مئات الملايين من البشر، على امتداد أربع قارات (مع افتراضنا أن أستراليا بلا فقر)، إن وجود عشرات الملايين من الفقراء في الولايات المتحدة الأمريكية، إن هذه الديمومة للفقر وللإفقار تبين من حيث الجوهر. إلى أي حد كان ماركس (عالم وناقد علم الاقتصاد السياسي) على حق وكان الاقتصاد البرجوازي التقاؤلي المبتذل على باطل. لو حسبنا معدل تقدم التقنية مجردة، معدل نمو الإنتاجية (القدرة الإنتاجية للعمل الإنساني) مجرداً على امتداد المئة سنة الماضية، فقد يكون هذا المعدل مئة ضعف. هذا لم يعمم الثراء، ولا الراحة، وضوحاً، إن الذي يتسع، في الآونة الأخيرة، ليس اليسر، ولا العمل والراحة، بل البطالة والتعطّل، بطالة أهل الفقر وأهل البطر على حد سواء.

إنني لا أعتقد، من قريب أو بعيد، أن ماركس وإنجلز ولينين، كانوا معصومين عن الخطأ والضلال، بل أسلم فوراً بأنهم على الأرجح ارتكبوا مئات الأخطاء والتقصيرات، وأنهم لم يروا كل شيء ولا حتى في عصرهم أو العصر الذي سبقه. لكنهم كانوا في الموضوع. آخرون - نظريات أوروبية، ومفكرون عرب تراثويون وأوروبيون - هم خارج الموضوع : hors du sujet!

إنني لا أعتقد بأن الردة الدينية . السياسية سوف تطعم الفقراء. ولا أعتقد من المعقول أن نطرح مسائل من نوع الديمقراطية أو الحداثة أو العلمانية بمعزل عن طعام البشر، عن الاستقلال، عن العلاقات الاجتماعية والسياسية، العربية والعالمية.

11- القضية هي قضية الفلسفة وقضية الواقع وقضية الشعب.

الوعي العربي "النظري" السائد مكوّن من إيمان ضمّني وصمّيمي بأنّ الثالث السابق متنافر: فالفلسفة في مكان (عالٍ وغائم، ومرفوض) والشعب في مكان آخر (واطئ) والواقع الحقيقي في مكان ثالث، متوسط وجيد، مع "العلم" و"العلوم" وحاملها "النسبيين". هذا الإيمان هو أبرز مظهر للوضعانية الفكرية العربية، الوضعانية.

ما هي الوضعانية أو الوضعوية، كمذهب فلسفي معلوم؟

ما هي الوضعانية التلقائية، عند البشر وعند العرب ومثقفهم؟

ما علاقة هذا الأمر المزدوج مع فكر عصر النهضة العربي ومع الفكر العربي الحاضر؟ وهل

هناك فكر إسلامي، ديني - سياسي، وضعوي؟

هل هناك في تاريخ وحاضر الماركسية، ماركسية وماركسيات وضعوية؟ ماركسية ستالين،

ماركسية الفرنسيين؟

هل هناك عنصر من وضعوية وما شابه - أي شيء ما يجب أن يدان - في الماركسية نفسها،

في آراء أعلامها: إنجلز ولينين وماركس؟

ما علاقة هذا الشيء كله بتاريخنا الأخير، بعملنا ومستقبلنا كشعب؟ ما هي الخطوط الكبيرة

للمعارضة وضعوية / أم / جدل؟

وهل لهذه المعارضة الفلسفية وجه سياسي، يكون ليبرالية / أم / ديمقراطية؟

هذا ما أسعى للإجابة عنه.

غني عن البيان أن هذه الإجابة شخصية، وأنها لا تدّعي الأكاديمية والعلمية والدقة، لكنها تدعي

الفلسفية والشعبية والسياسية أيضاً. مسعاي هو مسعى الحقيقة. من جهتي، ومع احترامي

للأكاديمية، لمناهج البحث العلمي، للدقة والإحصاء، فإنني أعتقد أن الحقيقة غير مستنفدة في هذه

الأمر ولا مؤسسة عليها.

على المفكر أن يخاطب شعبه. خطابي الشخصي أختصره سلفاً في نقطتين:

الجدل لا الوضعوية

الديمقراطية لا الليبرالية.

هذا ليس معناه: لا للموقف الوضعي أو الإيجابي، بل معناه أن الموقف الوضعي أو الإيجابي

والواقعي الإيجابي الخ له أساس خارج ذاته، له موقع كبير و"طويل إلى ما لا نهاية" لكن بين حدين

قطبين، ولا يجوز أن يتحول إلى مذهب، لا يجوز أن يكون فلسفة، وفلسفة تجهل نفسها كفلسفة،

في معظم الحالات، ومصرّة على هذا الجهل لذاتها، لا يجوز أن يكون مذهباً وبعيدة ودينياً يتصور

نفسه عاصماً وواقياً ضد الشمولية والتوتالياتارية، ويجهل توتالياتارته هو. الجدل هو مذهب إقامة

الحد، بالمبدأ، على هذه التوتالياتارية، الخاصة والعالمة سواء بسواء.

وهذا ليس معناه: لا لليبرالية، بل معناه أن ثمة فرقاً يجب أن يوسم بين موقفين ومبدأين: ليبرالية/ديمقراطية. وأن هذا الفرق هو، بين جملة أمور، شرط لفهم تاريخنا الأخير وحاضرنا ومستقبلنا، بلا ضياع ولا أحلام هوائية، وشرط لتصالح قطاع واسع من المثقفين الجديين مع تاريخنا وشعبنا. والديمقراطية ليست هدفاً وطريقاً وأداة، في العمل السياسي، وحسب، بل هي أيضاً موقف في نظرية المعرفة. الديمقراطية هي موقف اعتراف بالكائن والواقع، بذات الواقع والتاريخ، موقف اعتراف بالبشرية الأمية صانعة التاريخ. سياسياً، الليبرالية هي موقف اعتراف بنخبة، بطبقة وسطى، ببرجوازية، بمثقفين وأحزاب، بدائرة حديثة من مجتمعنا، أي بشكل من أشكال "شعب الله المختار" حديث و"أيدولوجي". كمنحوية، من السهل أن تتقلب هذه الليبرالية إلى فاشية. الديمقراطية هي موقف اعتراف بجماهير هي كتل كبيرة مهمشة ويجب أن تتحول إلى ذات تاريخية وسياسية. ومن أجل هذه القضية، التي هي قضية تاريخنا الأخير والراهن، على المثقف أن ينتقل بوعي من "عنصر" وضعانيته الفلسفية إلى عنصر الجدل.

## الفصل الثاني

### المذهب الوضعي بحصر المعنى

1- المذهب الوضعي بحصر المعنى هو مذهب فلسفي أعلنه فيلسوف فرنسي مهم، هو أوغست كونت (1798-1857)، في الدروس التي ألقاها بعنوان دروس في الفلسفة الوضعية أو الإيجابية، سنة 1826، وأصاب انتشاراً واسعاً. نفسه البارز: العلوم والعلمية والتقدم البشري. بمعنى ما، إنه يواصل خطأ سابقاً في تاريخ الغرب، لكن في ظروف جديدة.

كان من اللحظة الأولى كأنه مناخ عام للغرب، لأوروبا، وللعالم، الداخل بطريقة وأخرى في عملية تطور حديث وجارف. العصر عصر ما بعد الثورة الفرنسية و نابليون والحروب الأوروبية المديدة، إنه عصر الثورة الصناعية، انطلاق الملاحه البخارية وسكك الحديد...

العالم اللغوي الفرنسي الكبير ليطره littré صاحب القاموس المعروف باسمه، غيزو Guizot رجل السياسة والمؤرخ الفرنسي، أرنت رينان Renan الفيلولوجي والباحث الفرنسي في أصول المسيحية، الفرنسي أميل دوركيم Durkheim عالم الاجتماع الذائع الصيت والأهمية، الإنكليزي هربرت سبنسر Spencer صاحب المذهب المعروف باسم التطورية évolutionnisme، الإنكليزي ستورات ميل Stuart Mill صاحب "طريقة العلوم" كما نعلمها في المدارس، الأميركي وليم جيمس W. James صاحب مذهب البراغماتية الخ: أشخاص متنوعون، تيارات متباينة لكنها تؤلف مناخاً على امتداد نيف ومئة عام. وأوغست كونت Aug. Conte رائد هذا المناخ، الذي له قاعدته التاريخية والاجتماعية وأصوله ومنابعه الفكرية في حقبة ماضية من تاريخ أوروبا.

في البرازيل، في تركيا، عند العرب، الخ، طبعت ثقافات الحداثة والتجديد بهذا المناخ. المثقفون مرّوا ويمرون بأوغست كونت ولو من خلال كتاب الفلسفة لصف النابالكالوريا. في أوروبا الغربية ومنطقة إشعاعها العالمي، الفلسفة "نزلت إلى الشارع"، "تفتت" في الصحافة والأدب. رجال الثقافة والسياسة الذين يديرون ظهرهم للفلسفة يكوّنون لأنفسهم فلسفة ضمنية عن هذا الطريق، فلسفة سهلة، واضحة وعقيدية... شعارها: العلوم. أو بالأصح: العلوم + مثل عليا. الأشخاص الذين ذكرناهم يحملون مثلاً عليا، وهم جميعاً رواد تقدم، تقدم ما.

2- عاش أوغست كونت، جوهرياً، في زمن الإعادة ومونارشية لوي فيليب، أي في الحقبة 1815-1848، إذاً، كما قلنا، في عصر انطلاق الثورة الصناعية في فرنسا وحولها وبعد العصر العملاق، عصر الثورة ونابليون، عصر الأنوار الفرنسية والألمانية، كمنظور روسو، غوته وهيجل. العصر العملاق كان عصر مراجعة عامة وثورة. العصر الذي يليه عصر تقدم.

وكان كونت رجل علم وعلوم وتقنية واسع الاطلاع ومتعدد الميادين.

ولقد لقب أحياناً بأنه هيغل فرنسا. علماً بأن الفرق كبير بينهما في النشأة والأصول: هيغل (1770-1831) تابع للمسيحية ولوثر، للفلسفة اليونانية ومسائلها ومدارسها، لأرسطو وياكوب بوهم، لديكارت وبيكن ولوك وسبينوزا ولايبنتس، لآدم سميث ومسألية العمل والقيمة، للثورة الفرنسية وكنط والفلسفة الكلاسيكية الألمانية. إنه بأن معاً ابن عصره و"خلاصة أوروبا" المفكرة. أما كونت فله، بطبيعة الحال، بعض الأصول الفلسفية أو الفكرية العامة، لكنه "متجاوز" إياها ومتقدم عليها في اتجاهه هو. إنه بلا صلة حقيقية مع الفلسفة الكبرى، صلته هي مع العلوم والتقنيات والصناعة الفاتحة، أي مع "عصره"، موقفه من الفلسفة ومن العصر السابق موقف رفض. إنه رجل الإجابة والإيجاب: هكذا تصوّر نفسه وتصوره الأتباع. وأوروبا التالية تقدم ما يكفي من المبررات لهذا التصور.

كان كونت خريج معهد البوليتكنيك (1814-1816)، معهد النوابغ المبكرين. ثم صار معاوناً لسان. سيمون (1817-1824)، الذي، رغم قطيعتهما التالية، ساهم كثيراً في تشكل فكره. لنذكر أن سان. سيمون (1760-1825) هو أحد رواد الاشتراكية الطوباوية آنذاك، ويتميز، كلون خاص لهذه الاشتراكية الطوباوية الفاتحة الأهمية، بالتأكيد على التقدم والصناعة والتنظيم. مذهبه مذهب صناعية متفائلة: انهيار النظام القديم (الملك، الأرستقراطي)، مجيء المجتمع الصناعي الذي يسيره "الصناعيون" (أي المنتجون)، في تنسيق يجمع رؤساء المشروعات أو المنشآت والعمال، وفي اتجاه اشتراكي... بالمجموع: أفكار غنية، نشرها في المجلة التي أنشأها بعنوان الصناعة (1816)، ثم مع كونت في المنظم (1819-1820)، ثم في المنظومة الصناعية (1820-1822)، وأخيراً في كتاب أخلاقي واشتراكي عنوانه المسيحية الاجتماعية، صدر بعد وفاته. سان سيمون فيلسوف وعالم اقتصاد. كاشتراكي طوباوي، إن لونه الخاص هو/ كما قلنا قبل قليل، التقدم والصناعة والتنظيم، مذهبه صناعية متفائلة. فورييه Fourier مثلاً طراز آخر (في الطوباوية نفسها)، أكثر جدلية. حيث أن الجدل مذهب تناقض، قريب من روسو صاحب أصل التفاوت، وناقد الحضارة والمدنية. من جهة أخرى، لنقل إن العنصر الاشتراكي السان السيموني يختفي عند أوغست كونت، لكن ليس العنصر الطوباوي المهم ولا حب البشرية. وبوجه الإجمال، إن الرجال الذين ذكرناهم. رينان، سبنسر، الخ. يتميزون بحب حقيقي للبشرية، يحملون مثلاً علياً، كما قلنا قبل قليل...

أوغاست كونت كوّن مذهبه باكراً، في شبابه، وأعلنه على الملأ. هذا أيضاً يستحق وقفة. لقد لاحظ بعض الباحثات أن الاكتشافات الكبرى في الفيزياء والرياضيات (مثلاً فيزياء القرن العشرين) يحققها أصحابها المبدعون في أول شبابهم ثم تكون مسيرة حياتهم الطويلة إنماء وتوسيعاً للاكتشاف الأول الذي كان هو الثورة والانقلاب. ليست هكذا حتماً حال الفلسفة والمذاهب الاجتماعية. لكن هكذا حال أوغست كونت. وهكذا. بشكل آخر. حال ماركس، أو كلاوسيفيتس، أو

هيغل، لكن مع الفرق. ثمة عند هؤلاء تقدم عضوي، تحول حقيقي بسيط وإنماء. هذا لا يمكن قوله عن أوغوست كونت. ثمة مسافة بين هيغل الشاب مكتشف جدل التناقض، أو العقل (Vernunft) كجدل، على قضية "العدد الأصم" وكتاب المنطق الكبير، لا يمكن أن نجد ما يشابهها ولو من بعيد في مسيرة كونت.

بدأ كونت إلقاء دروسه في الفلسفة الوضعية (أو الإيجابية) سنة 1826. همه "إنهاء العصر الثوري" (عصر الثورة الفرنسية وما تلاها)... و"توجيه الأذهان نحو التلاقي على مذهب وحيد"، إعادة تنظيم المجتمع بجعل السياسة "علماً إيجابياً وفيزيائياً". بعد أزمة نفسية، عاد إلى العمل، نشر دروسه الأنفة، من سنة 1830 حتى سنة 1842.

3- في هذا المؤلف، يعلن كونت أهم وأشهر قطعة في مجموع أفكاره، ألا وهي قانون الحالات الثلاث:

يؤكد كونت أن البشرية في تطورها (وكذلك الفرد) تمر على التوالي بثلاث حالات أو مراحل:

1- الحالة اللاهوتية (أو اللاهوتية والعسكرية) حيث الفكر البشري يعلل ظاهرات الطبيعة تعليلاً خيالياً وخارقاً (عبادة أصنام وتمائم، تعدد آلهة، ثم إله واحد). أسباب الظاهرات هي الأرواح: مثلاً العاصفة هي غضب إله الريح.

2- الحالة الميتافيزيقية، الماورائية أو الغيبية، وهي "تعديل" للحالة الأولى. هنا بدلاً من اللجوء إلى الأرواح والعوامل الخارقة، الإنسان يعلل الظاهرات بقوة مجردة. المثال الكاركتوري عن هذه الحالة الميتافيزيقية، يأخذه كونت من مسرحية ساخرة لـ موليير ضد الأطباء المدعين: يا سيدي الطبيب، لماذا الأفيون ينوم؟ الجواب: لأن له قدرة تنويمية، (أو إذا شئتم: فضيلة تنويمية).

3) أخيراً، بعد جهد طويل، يبلغ الإنسان الحالة الوضعية (أو المرحلة الوضعية والصناعية) أي الإيجابية positif، التي هي قطع أو قطعية مع الحالة السابقة.

هنا البشر تخلوا عن البحث عن الأسباب (تخلوا عن التعليل أو التفسير)، وهم يكتفون باكتشاف القوانين التي تحكم الواقع والوقائع وذلك بالملاحظة والحاكمة.

هذا بدا للكثيرين، وما زال يبدو للبعض، كأنه خاتمة وتنتويج تطور أوروبا وتقدم فكرها. لقد دخلت أوروبا في عصر الجدوى، علينا أن ندخله نحن أيضاً /أو/ حسب البعض الآخر، يجب أن نرفض أوروبا. بالنسبة للطرفين: هذه هي أوروبا، خلاصتها وزيدتها و"جوهرها الخامس" (quintessence).

لكن لنابع مسيرة كونت<sup>14</sup>.

14 - استند إلى مراجع ابتدائية: كتاب مدرسي، قاموس عادي. الخ.

ينشئ كونت تصنيفاً للعلوم، ذا أهمية أكيدة وقصور مؤكد، أو لنقل ذا فائدة تعليمية. إنه تصنيف خطّي (أي على خط، خط مستقيم)، يذهب في اتجاه "تناقص العمومية وتزايد التعقيد". ستة علوم: الرياضيات (وهي "ركيزة كل الفلسفة الطبيعية")، علم الفلك، الفيزياء، الكيمياء، الفيزيولوجيا، أخيراً الفيزياء الاجتماعية أو سوسولوجيا (علم الاجتماع) وتنقسم إلى ستاتيكا (ثبات) وديناميكا (حركية) اجتماعية.

لا يهمننا أن نعرف ما إذا كان هذا للتصنيف أو كان هذا المصطلح الأخير . سوسولوجيا . ابن أوغست كونت أو ابن أستاذه سان سيمون<sup>15</sup>... كونت يرفض السيكلوجيا (علم النفس) والاستبطان (الملاحظة الداخلية)، أو يحل العلم المذكور في إحداثيته: الفيزيولوجيا والسوسولوجيا. هذا يعطيه مسحة إضافية من علمية إزاء رهط من استبطانيي القرن التاسع عشر الفرنسيين والإنكليز... بالطبع، أن يكون الأدب الكلاسيكي الكبير (الفرنسي أو الروسي، الألماني أو الإنكليزي أو السويدي الخ) معرفة جدية وعميقة للنفس البشرية، فهذا أمر بعيد عن الإيجابية العلمية و"مكملاتها" من استبطانية علمية أو علموية الخ. هذه الحقيقة لم تخف على الفكر الماركسي، ولا سيما الفكر الماركسي السوفياتي في زمن ستالين.

4- على أي حال، فأوغست كونت له نفس، ككل البشر، ويقع في عشق أفلاطوني للسيدة كلوتيلد دوفو (التي صادفها في عام 1844 وماتت بعد عامين)، و، جزئياً تحت تأثير هذا الحب، يأتي شيء جديد في سيرته الفكرية: إلى المذهب الفلسفي الإيجابي ينضاف دين إيجابي يظهر في عدد من المؤلفات: منظومة السياسة الإيجابية 1851-1854 الكاتيشيسم الإيجابي 1852. "مجموع مذهب كونت تحول نحو إيجابية دينية حقيقية".

"الكاتيشيسم" في اللغة الفرنسية يعني، عادة، موجز تعليم الدين بالأسئلة والأجوبة، بشكل مختصر ومنهجي. الزمن كان، على كل حال، عصراً عظيماً، وجماهيراً، الفكر يريد مخاطبة جمهور البشر. لنذكر أن إنجلترا كتب، كمسودة أو كمشروع منه لـ البيان الشيوعي (الصادر في أوائل 1848) "كاتيشيسماً شيعياً". كتاب ليوشاوشي كيف تكون شيعياً جيداً يذكر بالكاتيشيسم، وهو كتاب جيد. كذلك الكتاب الأحمر (ماوتسي تونغ لين بياو)، الذي جاب الصحارى والغابات في العالم، وهو في رأيي أسوأ ما صدر عن الصين: إنه عملية انهيار لفكر ماوتسي تونغ الحقيقي بدون أي تزوير نصي، بالغاء السياق والتاريخية، بالتطهير والسرمد... يبقى أن مخاطبة جمهور البشر العاديين بأبسط شكل ممكن مسألة غير سهلة. ولعل البيان الشيوعي لا يقلد. أما فلسفة المادية الجدلية والمادية التاريخية، كتاب ستالين، فهي مسألة يعززها كمأساة كون الكتاب كاتيشيسماً

15 - هذه مسألة أثارت بعض الاهتمام عند إنجلز.

متقدماً ومتطوراً، وضعه زعيم الحركة الظافرة وإمام المذهب البالغ ذروة التقدم والنقاء العلمي (ستالين لقب بالفرنسية coryphée de la science).

حسب كونت، المجتمع والدولة الوضعانيتان أو الإيجابويتان سيكون لهما دينهما وأخلاقهما: الدين الجديد هو عبادة "الكائن الكبير" الذي هو "البشرية" أو الإنسانية (والأرض هي التميمة الكبيرة)<sup>16</sup>. أما الأخلاق فشعارها: "الحب كمبدأ، النظام order كقاعدة، والتقدم كهدف".

بطبيعة الحال، هذا الدين بلا لاهوت (إنه دين وضعي إيجابي، وظيفته تتويج الحالة الوضعية)، لكن مع طقوس وعبادات وتراتب وبابا هو كونت. من جهة أخرى، نلاحظ أنه يعظم الإنسان والبشرية كما ربما لا يعظمها فويرباخ مثلاً (عند هذا الأخير، لعله يجب القول إن الطبيعانية. فكرة الطبيعة. تلعب دور وزن مقابل أو مخفف). ربما يجب القول أيضاً: كونت يرفض الله، يقيم الذاتية، ومذهباً ميكانيكياً في خدمتها. هذه هي مثاليته. مرة أخرى: المثالية == الذاتية، علاقة تعادل أو تكافؤ.

بعض أتباع كونت أو معظمهم، ولاسيما العلامة اللغوي الكبير ليتره littré، رفضوا وحدة وتواصل مذهب كونت، فرزوا وفرقوا المذهب الفلسفي الوضعي والدين الوضعي. احتفظوا بالقسم الأول أي بدروس الفلسفة الوضعية، طوّروا هذا الخ، اعترضوا على صوفيّات المعلم الخ. وسمي مذهبهم أحياناً بالوضعية العلموية.<sup>17</sup>

بطبيعة الحال، إن ما يهمننا هو المذهب الفلسفي، المناخ "الإيجابي"، "العلمي" الخ. يستطيع المرء أن يكون كونتياً بدون دين كونت، بدون أي دين، مع دين آخر كإضافة، مثلاً مع دين المسيحية أو دين الإسلام، أو غير ذلك، مع أديان غير دينية. ليس مجبراً على تبني كل قطعة في المذهب الفلسفي الكونتي، يمكن أن يكون شعاره الدين + العلم أو العلوم، أو المعرفة العلمية بلا الدين أو بوصفها هي الدين المتقدم.

الحلقة الوضعية قد تكون في انشغاقات وخلافات، لكنها حلقة مغلقة، رافضة ل هيغل، للجدل، لم تسمع بأمر كهذا، وإذا سمعت فهي مديرة ظهرها للألمان والغموض الألماني، رافعة - في فرنسة، بل وعند ماركسيين متنوعين ومتخالفين - راية الوضوح الديكارتي المثلثة الألوان. علماً بأن ديكارت أيضاً يستطيع، إزاء خلافته الفرنسية، أن يقول ما قاله ماركس إزاء بعض الأتباع: "زرعت تينيات وحصدت براغيث"...

16 - لابس أن نذكر أن دين روبسبير كان عبادة الكائن الأسمى أي الأعلى (شبيء ما فوق)، أما الجناح اليساري الأقصى (هيبيرت، شوميت) فذهب إلى عبادة "الإلهة، العقل" déesse raison: هذا العقل ذاتي بالدرجة الأولى، وهو إله (أو إلهة بموجب الكلمة الفرنسية raison).

17 - لكن مصطلح "العلموية" seientisme يتخطى إطار ليتره وكونت. إنه تعبير جيد عن المناخ الذي نحن بصدده. وهو - بمعنى ما - مرادف للوضعية، الإيجابية الخ...



كما قلنا، إن دين كونت الذي رفضه معظم أتباعه والذي لم تهتد إليه البشرية في السنة التي حددها كونت لذلك (في منتصف قرننا هذا)، هو دين بلا لاهوت، لكن مع طقوس وعبادة وتراتب وألقاب وبابا. ولقد قيل عنه، بل عن كل مذهب كونت، إنه نوع من كاثوليكية بدون المسيحية<sup>18</sup>!! تلك مشابهة موحية، يجدر بنا أن لا ننساها. حين ننظر إلى "الأحزاب السياسية" وسط القرن العشرين أو على مشارف انتهائه: الروح ترحل؛ الدوام للطقوس والعبادات والبابوات. هي الحي الباقي.

---

18 - انظر جان جاك شفالیه، المؤلفات السياسية الكبرى من ماكيافل إلى أيامنا، دار الحقيقة.

## الفصل الثالث

### الحالة الميتافيزيقية

1- الحالة الوضعية أو الإيجابية معرفة كضد للحالة الميتافيزيقية، الماورائية، الغيبية، كونت مع الطبيعة، مع الواقع، مع الموجود، مع الظاهرات وعلاقتها، الخ، ناف لما وراء، الغيب، الا ما فوق، الا ما تحت. يمكن أن نرد فوراً، بموجب الجدل، كل الحقيقة قائمة على ما وراء (وما تحت وما فوق وما بعد) المحسوس، المباشر.

ليس هذا ما قصده كونت، لا ما يقصده أتباعه؟

- في هذه الحال، إذا كانت الحقيقة، بشهادة تاريخ العلوم، هي في ما وراء المباشر، عندئذ فإن كل مذهب لا يرتكز على هذا المبدأ هو مذهب أحمق. الذرة، القيمة، سرعة الضوء الخ كلها في الماوراء. بتعبير آخر: "الطبيعة"، "الواقع"، "الموجود"، "الكائن" الخ (يمكن أن ننوع الألفاظ، أن نستعمل مصطلحات أخرى) هذا كل منه ينشطر حتماً إلى اثنين: الظاهر وما وراء الظاهر. هذا الشطر إلى اثنين هو الفكر أو هو الجدل، الساعي والجاهد لمعرفة الواقع والحقيقة. إنهن قوام كل معرفة بشرية، وبشكل خاص المعرفة العلمية.

ليس من باب الصدفة أن جميع العلماء الفاتحين هم، بمعنى ما، فلاسفة. كونت ليس هذا وذلك. إن عدداً من العلماء المؤسسين كانوا فلاسفة بجمع المعاني ويدرسون كفلاسفة: فيثاغور، أرسطو، ابن سينا، ديكارت، لايبنتس، ابن خلدون، ماركس...

لكن للنظر في محتويات "الحالة الميتافيزيقية" حسب كونت. ذكرنا أن جوهرها التعليل بالقوى المجردة التي حلت محل آلهة وأرواح الحالة اللاهوتية وأن شعارها الكاريكاتوري قدرة الأفيون التنويمية كتعليل لفعل الأفيون التنويمي. أما محتوياتها فغنية ومتنوعة، نذكر منها:

(1) القضايا الفلسفية الكبرى، الفلسفة التقليدية، عدد من الكليات المجردات ومن الأزواج الفلسفية التي عمل بها الفكر الإنساني قديماً وحديثاً.

(2) فكرة العلة، السبب، مقولة السببية. مقابل، فكرة القانون تؤكد وتعظم.

(3) البحث في بنية المادة: فهو غيبية واستحالة؛ وكذلك كل محاولة لمعرفة العناصر (بمعنى

علم الكيمياء) التي تكون مادة الكواكب والنجوم.

(4) حساب الاحتمالات وتحليل النهايات الصغرى.

(5) محاولة تطبيق الرياضيات على البيولوجيا.

(6) فكرة الثورة، فهي غيبية واستبداد. بالمقابل، فكرة التقدم تنال التأييد والتمجيد.

هذه اللائحة السريعة لا تستنفذ سلة الماروائية بمعنى كونت<sup>19</sup>. إنها أمثلة وناطقة. يمكن لكونت آخر، فرنسي أو عربي أو ألماني، من القرن التاسع عشر أو من القرن الثالث والعشرين أو من القرن الرابع قبل الميلاد، مبدئياً، وبلا فرق. أن يعدلها، أن يحذف بعض محتوياتها وأن يضيف محتويات أخرى، أو أن يستبدلها بغيرها، تبقى القضية واحدة بالأساس. إنها تعبر عن مبدأ، عن خط، عن تركيبية عقل أو ذهن تتصور نفسها هي العقل، هي العلمية، الواقعية، الإيجابية. المسألة ليست مسألة تفاصيل. لكن لا بد من الوقوف عند "التفاصيل"، لا بد من النظر في محتويات "الماروائية" الآنفه وذلك من أجل فهمها: فهم أسسها وأصولها، منطقتها، أبعادها... إذاً نقدها.

2- أبدأ ببنية المادة، انطلاقاً من عبث محاولة معرفة عناصر مادة الكواكب والنجوم. بالفعل من أين لنا أن نعرف هذه العناصر؟ ليس هناك بواخر أو قطارات فضائية، ولا حتى في مخابر معهد البوليتكنيك. البواخر تسير في البحار والقطارات. قريباً. فوق الأرض. لا يمكن "الوصول" مادياً. والنجوم مشتتة محرقة... فليبق العقل على الأرض وحولها. إنه "الملاحظة والمحكمة" حسب كونت، ليس حسب ليوناردو دافنشي ولا عشرات الآخرين...

لكن بعد سنوات قليلة، في سنة 1863، حطم العقل الحقيقي المسلح بالمطياف الموشوري، وبدون أن يتحرك من مكانه، القرار "الإيجابي"، الصادر عن "الفيلسوف العلمي"... وتأكدت أكثر فأكثر الوحدة المادية للطبيعة والكون. وذهب علم الفيزياء، في القرن العشرين، أكثر فأكثر في اتجاه الوحدة والاختلاف، الهوية والفرق، إلى ما لا نهاية، في معرفة الماكروكوسم (الكون الكبير) والميكروكوسم (الكون الصغير).

وهذا التقدم خط فلسفي - علمي قديم جداً، عريق وأصيل، في الفكر البشري. الفكر البشري يفتح بنية المادة بالعقل النافي للتجريبية، وللتجريبية العلمية المصفاة، للوضعوية، للتجريبية - الدوغمائية، الخ والمستند بوعي على الحواس، على التجربة، وعلى التجريب، بوصفها أدواته ومادته، والعامل بأبسط وأكبر المجردات المفهومية.

لنذكر تعليم هيغل: إن أحداً لم ير الذرة atome لا بالعين المجردة ولا بالعين المسلحة بأعظم ميكروسكوب، ومع ذلك فمفهوم الذرة (ذرة/ فراغ) هو ركيزة كل علم الفيزياء، إذا ألغينا هذا المفهوم الكينوني، انهار كل بناء علم الفيزياء.

ذرة/ فراغ، مليء - فارغ (أو نادر): هذا خط جدلي قديم، شرقي ثم يوناني، وحديث. حسب الفيزياء النووية في القرن العشرين، إن القسم الفارغ في الذرة أكبر مئات المرات من الأقسام المليئة، من مجموع الجزيئات الأخيرة غير الأخيرة (الكترن، بروتون، نيوترون، الخ) بحيث أنه إذا "حذفنا" هذا "الفراغ" الداخلي للذرة واستبقينا "المليء" وحده، وإذا "ضغطنا" جبلاً من الجبال على هذا الأساس،

19 - نقلتها، من الذاكرة، عن كتاب جان فال: بانوراما الفلسفة الفرنسية.

لصار لا يتعدى بحجمه بناية سكنية من بضعة أدوار. مع أنه جبل (حقيقته هو أنه جبل! وليس أنه هو "إلكترونات"! كما أن هذا الجدار أمامي جدار، جدار مليء وصلب. لنقل لا المليء مليء ولا الفارغ فارغ. حتى هذه الكلمات الحسية، البسيطة والسهلة الخ، لها حد ويجب أن يقام عليها الحد، بالمبدأ. وكذلك، كل الكلمات.

مرة أخرى، أقول: الفلسفة تعيش في ومن المطلق. يقول هيغل. المطلق عنصرها، كما السمك عنصره الماء. والمطلق مفهوم وحد، شأنه في ذلك شأن النسبي سواء بسواء. والرسالة الأولى لهذا الحد: المطلق، هي أنه يحد النسبي، أنه يقيم الحد على الكلمات، القوانين، علم من العلوم، مجموع العلوم، حالة علمية عابرة، مجموع الحالات العلمية، وأي جمع أو مجموع يمكن تصوره. إن الواقع وكل واقع هو جملة وهو كل؛ لكن بالضبط ثمة فرق، بالمبدأ والأساس، بين فكرة الكل أو الجملة /و/ فكرة الجمع والمجتمع. الأولى صفر ولانهاية، الثانية عدد ما و"ينمو". الحرية، الديمقراطية، هي عند الأولى، لأن الأولى هي وحدها الأساس لحق الثانية وجدواها وضرورتها. الثانية، بدون الأولى، مطلقة، استبداداً وتوتاليارية... هكذا الفلسفة الوضعوية. وهكذا تجربة القرن العشرين البشرية.

في هذه الحثية، الفلسفية، الزمن الأول أفضل: لوغوس هيراكليت وخلافته المتنوعة، الكلاسيكية. اليونانيون جابهوا الكلمات، اللغة، معنى وقصد الكلمات. اخترعوا (أي كانوا إحدى الحلقات الحاسمة في هذا الاختراع المتكرر، شأنه شأن كل اختراع حقيقي) فكرة الحد *terme, bome. Limite*، أي الحد بكل المعاني والاستعمالات العربية للكلمة. في زمن الفلسفة الأولى، البسيطة، الساذجة، كانوا يسمون "الفارغ" (أي الفراغ بين الذرات في مذهب الذرات والفراغ) أيضاً "النادر" *le rare*. كانت تلك الفلسفة ساذجة، بدائية وابتدائية. لكنها كانت فلسفة. عملت بمفاهيم كبيرة، تعاملت (هكذا هيراكليت وغيره) مع كلمات حسية جداً من نوع مليء وفارغ، فوق وتحت، بارد وساخن، الخ، لكنها تعاملت معها، عملياً وبصرف النظر عن التسميات الفلسفية وعن دلالاتها التاريخية المرحلية، بصفتها مثلاً. فكراً. مفاهيم. هذا الخط الأصيل، البالغ القدم والبالغ الحدة، هذا الخط التاريخي - الأزلي، هو ما يرميه كونت والكونتيون بأنواعهم. "الحالة الإيجابية" المتقدمة هي إلغاء لهذا الأساس وهذا الخط.

3- إن المذهب الذري يستحق وقفة إضافية. من المعروف أن هذا المذهب هو مذهب اليونانيين، لوسيب، ثم ديموقريط، أبيقور، الشاعر اللاتيني لوكريس، وصار خطأً طويلاً وغنياً في تاريخ الفلسفة والعلم الفيزيائي، في تاريخ الفكر الأوروبي، وصولاً إلى القرن العشرين، إلى علم الميكانيكا التمجوية (ومروراً بالعرب).

هذا الخط الثمين جداً ليس الخط الوحيد في تاريخ الفكر. بالعكس. إلى جانب هذا الخط الذري (المادة: ذرة /و/ فراغ)، هناك خط آخر هو خط الواقع: مادة/ و/ شكل. يمكن أن نقول إنه خط

أرسطو ومعظم المثالية ومعظم الفلسفة وهيغل وماركس. يمكن أن نقول أيضاً إن الخط الأول هو خط الحركة، الثاني هو خط التغيير والتاريخ: فكرة التشكل والتشكيل، مبدأ أن التاريخ هو "تغيير للأشكال" أو "تغيير (أو تلون) على الأشكال" (ماركس!)، أي تحول، انتقال من حال إلى حال، transformation (تحول الشكل). من هيراكليت واللوغوس، إلى أفلاطون والمثل (=المفاهيم)، إلى منطق الشكل والمفهوم والحد وفكرة التاريخ الطبيعي (أرسطو)... أوغست كونت بعيد عن هذا كله: العلم الإيجابي في غنى عنه. الماركسيون، من جهتهم، لم يفتنوا للخط الثاني (مادة . شكل، واقع . إمكان، منطق، والتاريخ كمنطق)<sup>20</sup>، أغنتهم فكرة "المادة" عن فكرة الواقع، فكرة الكائن، فكرة الطبيعة.

لكن لنعد إلى المذهب الذري. إن فيزياء القرن العشرين تثبت الفكرة الذرية القديمة وتخطئ دعوى كونت ضد محاولة معرفة بنية المادة، إنها تثبت فكرة الـ ماوراء التي انطلقنا من مسألتها: كونت، حكماً، ضد هذا الماوراء، هكذا نفسه.

أكثر من ذلك، إن فيزياء القرن العشرين تخطئ الخط الذري اليوناني - الأوروبي، المديد، وتنتصر للمنطلق الأقدم، الشرقي، الفينيقي، وذلك على نقطة حاسمة.

فمن المعروف أن الذرة (الجزئية الأخيرة)، قبل أن تكون فكرة يونانية، كانت فينيقية، بابلية الخ. هذا ما يذكره على سبيل المثال، كيدروف في كتابه وحدة المنطق والجدل ونظرية المعرفة<sup>21</sup>. لكن فكرة الذرة اليونانية هي فكرة ذرة لا تتجزأ، وهذا هو معنى الكلمة الفرنسية atome، وإيحاء كلمة "ذرة" العربية، وعلى الأرجح مشابهاتها في اللغات الأخرى. وعلى هذا الأساس، سار الفكر الأوروبي الذري، و علم الفيزياء... أخيراً، في مطلع هذا القرن، تغير الموقف، سقطت فكرة أن الذرة لا تتجزأ، فكرة أن هناك "ذرة" أخيرة. الذرة تتجزأ، وتتجزأ إلى ما لا نهاية. ليس هناك جزيئات أخيرة للمادة الفيزيقية، بل لنقل إنها استحالة تصور أو استحالة عقل، و... النَّفس الوضعوي الإيجابي هو العكس!.

لكنها بالضبط النَّفس الفينيقي. الفيلسوف من صور الكنعانية الذي اخترع الفكرة أو المذهب قال بفكرة ذرة قابلة للتجزؤ إلى ما لانهاية، أي بفكرة مليء وفارغ ذاهبين نحو اللانهاية. هذا ما رواه مؤخراً سعيد عقل في مقابلة تلفزيونية. شخصياً، بدون أن أطلع على الملف، أصدقه تماماً، وأرى لهذه النقطة أهمية فلسفية حاسمة تتعلق بمنطق التاريخ والتقدم، بالضبط، ذلك ضد "التاريخية التقدمية الخطية" الضاربة أطنابها في ساحة الفكر التقدمي والماركسي أيضاً.

20 - بخصوص الخط المذكور أرسطو - هيغل - ماركس (فكرة الشكل)، انظر إرنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، دار الحقيقة.  
21 - كتاب مهم، سيصدر قريباً عن دار التنوير. لنقل أنه كتاب ممتاز في "فلسفة العلوم"، أقصد أنه لا يتعامل تحت عنوانه العظيم مع العمل البشري الكبير، مع تجربة القرن العشرين، الثورة الاشتراكية، مصائر الإنسان اليوم.

4- أي أنني فوراً أستبعد "الوطنية"، فينيقية كانت أو كنعانية أو عروبية عامة أو شرقية الخ. هناك سبل أخرى من أجل الوطنية، على هذه النقطة وعلى كل النقاط والمسائل المشابهة. يؤسفني أننا في تعليمنا وثقافتنا لا نثمر الثورة النيوليتية، لا نفهم المعنى الممكن (أي الواقعي . الممكن) للدين التوحيدى، وأننا "نعوض" بفيض من طوطميات تسمى نفسها وطنية ووطنيات وديناً وأدياناً. مازلنا، مثلاً، نزاود في الاختراع الأوغاريتي للأبجدية، بدون أن يكون ثمة داع للمزاودة، فهو اختراع عظيم بحد ذاته، محجمين عن وعي حقيقة أن إتمام اختراع الأبجدية الصوتية كان مآثرة يونانية على أساس لغة (نطق) هندو - أوروبية، ما دام اليونانيون هم الذين تابعوا عملية التجريد الفينيقية، فشطروا الوحدة الصوتية (المنطوقة والمسموعة) إلى عنصرين أو جانبين هما الساكنة *consonne* والصائتة *voyeel* ليس لأي منهما وجود منطوق أو مسموع... الوطنية التي يجب أن تنتبثق من تاريخنا، كتعليم وكتقافة، من الثورة النيوليتية، من الدين التوحيدى، من الأبجدية، من الحضارات النهريّة، الخ الخ، هي الإنسان والاجتماع الإنساني، العمل والإنتاج والحياة والتقدم، الوجدان والوعي، العقل في العالم وفي الرأس. لا وطنية ممكنة خارج العقل.. هذا أولاً.

وثانياً، أعود إلى المذهب الذري ومنطق التقدم.

المبدأ الذري الفينيقي متفوق على المبدأ اليوناني الديموقريطي، على الخط الأوروبي الطويل، الفلسفي والعلمي . الفيزيائي. ذلك القدم متفوق على هذا الأحدث منه، تفوقاً يجب أن ندعوه تفوقاً منطقياً - مفهوماً (أيّاً تكن مصطلحات رجل صور وصحبة). وفيزياء القرن العشرين تعود إلى القديم الأقدم من فوق هذا الذي بات قديماً. هذا التطور الأخير عودة، وثورة، المجموع تطور جدلي. إنه تقدم دائري.

فكرة الثورة، *révolution*، الانقلاب<sup>22</sup>، تتضمن (أو تقتضي) فكرة الدورة، الدوران، الدائرة. هكذا المصطلح في الفيزياء، في الفلك (هذا واضح في عنوان كتاب كوبرنيك)، إذاً في الميكانيك، حركة الأجسام. وهكذا في التاريخ، كل الثورات الجيدة والسيئة، التقدمية والرجعية، ثورات الكينونة وثورات الفكر تتضمن وتحوي فكرة عودة ورجوع. ويبقى السؤال: رجوع إلى ماذا؟ ومن أجل ماذا؟

لينين يقول، في الدفاتر الفلسفية: إن التصور الجدلي للتطور يختلف ويفترق عن سائر تصورات ونظريات التطور في أنه تصور للتطور مع عودة إلى البدء. هذا معنى نفي النفي. وأستفيد من هذه المناسبة لأصحح إحياء أو مضموناً خاطئاً في كتابي الماركسية في عصرنا (دار الطليعة، 1965): إن نفي النفي مقولة أساسية في صميم الجدل... ستالين أخطأ (وهنري لوفيفر وراءه قبل سنة 1950) في حذفه لهذه المقولة، بل إن ستالين لم يعمل بمقولة النفي ذاتها<sup>23</sup>. وبهذا المعنى

22 - الأتراك والفرس ترجمة *révolution* بكلمة انقلاب (العربية والتركية والفارسية). صحيفة الحزب الشيوعي التركي قبل نصف قرن كان اسمها "انقلاب جولو" (طريق الانقلاب).

23 - اكتفى بمقولة التناقض، الصائرة عملياً "قانوناً" والمخفضة إلى المرتبة الرابعة في عرض "سمات الطريقة الجدلية الماركسية". - كتاب المادية الجدلية والمادية التاريخية 1938.

بقي دون سبينوزا، لكن الجدل يتقدم من مفهوم النفي إلى مفهوم نفي النفي من سبينوزا إلى هيغل، ولا يتحقق إلا مع هيغل، الماركسية الفرنسية، في معظم أشخاصها، ظلت بعيدة عن هذا كله، وراء الإيجابية واللاغموض...

من رجل وجماعة صور، إلى اليونان وأوروبا والعلم الفيزيائي، إلى الفيزياء النووية في القرن العشرين، هكذا البسط الدائري. هذا البسط تقدم. الحلقة الأولى متفوقة على الثانية، الوسطى. لكن هذه الحلقة الوسطى هي المثمرة، هي التي أثمرت: علم الفيزياء، معرفة الطبيعة بالعلم. التقدم. البسط - النمو هو توقع أو تفعلن لممكن. لكن هذا التوقع هو تعين، إذاً تحدد وتقليص لجملة الممكن، وبالتالي إلغاء، واقعي - تاريخي، لممكن آخر، ثم هذا الممكن الآخر ينبعث ويتوقع، بفضل الشروط الواقعية التعيينية الجديدة الناجمة عن البسط السابق الذي بلغ حدّه. أولاً: من الفلسفة - العلم إلى العلوم؛ من العقل - اللوغوس إلى العقل الحسابي، الراسيو ratio؛ قبل الفيزياء النووية، الفيزياء العادية؛ قبل الميكانيكا التمجوية، ميكانيكا الأجسام... ثم، العودة. الثورة، البسط الجديد.

الذرة تتجزأ ولا تتجزأ: التجزئة تنقلنا إلى مستوى آخر، إلى شيء آخر. هناك ذرات ديموقريط: أجسام صغيرة متحركة في الفراغ، مختلفة، النفس أيضاً ذرة الخ. والذرات المتحركة هي الحقيقة، والأشياء ليست الحقيقة (وهكذا تفتح هذه المادية الفيزيقية باباً للمثالية الذاتية. لكن هذا أيضاً حال كل المادية التالية وصولاً إلى هيغل. ماركس) الخ. العلم الفيزيائي الكلاسيكي تجاوز ذرات ديموقريط، فرز الفكرة، ضَبَطَ:

هناك "الجزئية الكبيرة"، الموليكل molecule، "الكتلة الصغيرة". موليكلات جسم من الأجسام، كالماء مثلاً، متماثلة. كل منها H<sub>2</sub>O، 2 ذرة هيدروجين و1 ذرة أكسجين. يمكن أن نجزي (في الرأس، و، خارجه، في الواقع) "ذرة" الماء إلى مؤلفاتها الأنفة لكننا في هذه الحال ننتقل إلى "ذرة" من نوع آخر، لجسم أو شيء آخر، أكسجين أو هيدروجين، إلى "ذرة" بمعنى آخر هي التي يدعوها علم الطبيعة atome: ذرة<sup>24</sup>. هذه بدورها تتجزأ إلى جزيئات صغيرة، أي أنها مركبة، مؤلفة. في هذا المسلسل. تجزئة، ننتقل من "شيء" إلى آخر، من "مستوى" إلى آخر، من علم إلى علم، من الفيزياء، عبر الكيمياء، إلى فيزياء الذرة ونواتها.

والمستوى الأخير هو الذي يعيدنا إلى صور، إلى البداية الأولى!  
هل كان الصوري في الحالة الميتافيزيقية؟ في الحالة اللاهوتية؟. هذا يتوقف على معنى الكلمات. بأحد المعاني، كان كذلك بالتأكيد. كان في المطلق، في الأزلية، في اللانهاية الخ. بالتلازم مع النسبي والعاور والنهاية الخ. بالتأكيد، لم يكن في الحالة الوضعية، الإيجابية.

24 - إذا لم تخني الذاكرة: كان هناك اختلاف على ترجمة المصطلحين atome, molécule إلى العربية في المشرق العربي، أعتقد أنه انتهى.

كذلك السومري الذي اخترع الدولاب (العجلة)، الدائرة، الدوران - التقدم، "اللانهاية الجيدة" (هيغل). من عربة فالح الأرض وطنبر أيام زمان وعربة بائع الخضار في هذا الزمان إلى السيارة والصناعة وكل تقدم أوروبا الحديثة: إن فكرة الدائرة والدوران فكرة سيدة. هناك درس قراءة في الصف الثالث الابتدائي (في سوريا) عنوانه: كل يدور، وفحواه، عجلة الدراجة تدور والدراجة تتقدم، الآلات في المصانع تدور والإنتاج يتحقق. نواعير حماة تدور والأشجار تثمر، الثمار كروية...، وهكذا الإنسان والطبيعة والحياة. وقد لا يكون مضمون هذا الدرس العميق هو أفضل ما يمكن، لكن فيه من "الديالكتيك" أكثر مئة مرة مما عند تسعة أعشار "ديالكتيكي" هذه الأزمنة. من يدري؟ لعلمهم هم ونحن معهم أصبحنا، بفضلهم، في حالة "اللانهاية الجيدة" الأسوأ: الدوران بلا تقدم، الدوران النازل، التوازن التدهوري، التقدم اللانتهائي نحو الصفر، أو، بمصطلح الرياضيات، حرف إيسيلون.

إذاً لنقل، من وحي قصة بنية المادة، إن المفهوم الجدلي للتطور (هيغل . ماركس . لينين) يجب أن يوضع، من المبدأ والمنطلق وليس بعدهما، أصلياً وليس فرعياً أو فروعياً، ضد مفهوم التطور الكونتي، السبنسري، وما شابه. وستكون لنا عودة إلى هذه القضية أو عودات. أما الآن فانتقل إلى موجود آخر في سلة "الحالة الميافيزيقية": حساب الاحتمالات، إلى مسألة الرياضيات عموماً وعلاقتها بالفلسفة، بالطبيعة والحياة. لكنني إذاً بهذا الانتقال نفسه، أبقى على لحن العقل واللانهاية، أو النهاية واللانهاية، الحد وتجاوز الحد.

5- كونت يؤكد على الرياضيات وأهميتها. إنها "القاعدة لكل الفلسفة الطبيعية". لكن أية رياضيات؟ وما حقيقة الطبيعة؟

العصر الحديث (ق 17 - 18) بنى الأداة الرياضية الحديثة و"العلم الطبيعي . الرياضي"<sup>25</sup> الجبار . والفلسفة كلها طبعت نوعاً ما بهذا الطابع الرياضي، ولنقل بالصفة الهندسية - الميكانيكية. هذا المناخ هو مناخ العصر الحديث: ديكارت وسبينوزا، كيبلر ونيوتن، ومادية القرن الثامن عشر. فكرة العقل نفسها تتخذ هذا المعنى، العظيم والمحدود بالأساس: العلم معقول وعقلي وكائن الخ، وآله كبيرة، ساعة. رغم ذلك، فإنجلز لا يمتنع عن تسمية ديكارت وسبينوزا فيلسوفين جدليين، في موقع أو اثنين من جدل الطبيعة، مع تأكيده، من جهة أخرى - إذاً من حيثيات أخرى - أن هذا التصور الميكانيكي والميتافيزي منتكس عن الجدل، عن الفلسفة القديمة اليونانية، الخ.

ديكارت أسس الهندسة التحليلية، رياضيات المقادير المتغيرة، قبله فييت أسس علم الجبر الحديث، بعده لايبنتس ونيوتن اخترعا تحليل اللامتناهيات في الصغر والكبر (حساب التفاضل والتكامل)، باسكال وبرنولي وأولير بسطوا حساب الاحتمالات، الخ: هذا بوجه "تقريبي" تماماً!

25 - الصيغة من إرنست بلوخ، مرجع مذكور.



فالرياضيات المعنية جملة متكاملة ومتنوعة، هؤلاء الرجال رياضيون. وهذا الفتح فتح جدلي، ولعل نصيب فرنسا فيه هو النصف. كونت ليس في هذا الوارد، يحكم على هذا الميدان بأنه غيبي، ويصفق لغيره بوصفه إيجابياً.

لنذكر بحماس لينين لتحليل اللامتناهيات في الدفاتر الفلسفية<sup>26</sup> وببسط انجلز لجدل الرياضيات في جدل الطبيعة ...

ولنذكر أنهما في هذين الكتابين، إذاً بشكل منفصل، ينقلان هذا المقطع من هيغل الذي يقول ما فحواه: جاء فيثاغور، جرد الكم، العدد؛ أخذ هذا الكيف الخاص جداً، الكم بلا كيف، العدد بلا أشياء؛ يا له من عمل جسور!! . عليه يبنى العلم الرياضي، أول العلوم.

ليس المهم وجود أو عدم وجود شخص فيثاغور. الأرجح أن الشخص أسطوري، إنه وجد فقط أشخاص ("فيثاغوريون") معروفون بأسمائهم نسبوا أنفسهم (مدرستهم) إلى معلم لا وجود له، وجد فيثاغوريون هم فلاسفة، علماء، موسيقيون، متصوفة، سحريون، ومحبون للمحبة والإخاء... المهم هذا العمل الجسور، هذه التجريدة على الواقع، هذه الحملة العسكرية الرأسية (في الرأس وبالرأس: مصطلح هيغل وماركس). واللغة العربية فائقة الإصابة: تجرد، مجرد، مجردة... تجريدة...

إن عملية التجرد والتجريد هي لب التقدم البشري. بدونها لا عمق، لا كونية "الإيجابية" الفرنسية و"الإيجابية" العرباوية بالعكس. لعل الإلهين السيدين في القاموس المانوي المشترك لهاتين الإيجابيتين هما: "الواقع" (في باب آلهة الخير والنور) و"التجريد" (في باب آلهة الشر والظلام). الإيجابيون لا يعون أن كل الكلمات هي مجردات. لا يعون الإنسان والتقدم البشري.

الإنسان القديم، في الثورة النيوليتية (ثلاثة آلاف سنة من السيرورات المتنوعة والمتضاربة)، جرد وتجرد، استوعى وتوجدن، حسب وهندس وجبر، فصل المنفعة عن الواقع والعمل، والمعرفة إلى مباشرة وغير مباشرة، انتقل من الأخذ والصيد والتخريب إلى الزراعة والرعاية والمكاثرة، أنشأ القرى، غير وتملك عالمه. في حيثيات عدة، الإنسان المعاصر ينتكس اليوم إلى إنسان الأخذ والإتلاف والنهب<sup>27</sup>.

الإنسان العاقل والصانع رياضي، جابر وحاسب ومهندس. هذه هي القاعدة، الأرضية، لكل بسط ولكل تاريخ: مصر وبابل والهند والشرق الأقصى، اليونان والعرب وأوروبا...

تاريخ العلم الرياضي سلسلة من "الفنائح". هكذا بدت للمعاصرين. هكذا هي بمعنى من المعاني. هكذا يمكن ويجب أن يكتب وأن يعلم تاريخ الرياضيات. سأكتفي ببعض المفصلات المنطقية.

26 - وكتاب فرنسي عنوانه: ميتافيزيقا حساب اللامتناهيات.  
27 - بطن الأرض ينضب (نفت، مناجم)، رأسها يقرع (الغابات)

أولاً: العدد نفسه، قبل فيثاغور، و"من البداية" عند القبائل البدائية: عملية العد. أربع تقاحات، هذا يعني أنني حذف الفروق، جردت، أعلنت تماثلاً، هوية، هذه العملية . عد . وجه لعلمية منطق وفكر للعالم أكبر منها. القيمة . حسب ماركس . هي مساواة (تسوية، حذف جميع الفروق)، إذاً علاقة هي هوية، بين السلع المنتوجات الأشد اختلافاً، مثلاً علب دهان الأحذية أو الجدران وقصر جميل في شارع من الحي الغربي في لندن: أصحاب معامل الدهان يجرون هذا التبادل<sup>28</sup>. هذا منطق، عقالة كونية، والرياضيات (بالمعنى العادي) جزء من هذا المنطق، وجه تابع، هكذا القيمة أساس علم الاقتصاد الماركسي. هذا ما لا يعرفه "الماركسي النموذجي" عندنا. إنه يعرف الموقع الثاني: القيمة هي كمية العمل أو زمن العمل الضروري اجتماعياً الخ<sup>29</sup>... إذاً، في ذهنه، يمكن أن تصير بسهولة مالاً (سعرًا) أو شيئاً، وتكف عن كونها علاقة وعقلاً. معنى كلمة "هوية" يتشياً إذاً لا معنى (سوى الباطل) للموقع الثاني بدون الموقع الأول: القيمة علاقة، هوية، بين القصر وعلب الدهان. العد والعقل، الحساب والمنطق: هذا مشترك للإنسان القديم وللمليونير اللندني. والأولية هي للعقل، للمنطق. لكنها ليست أولية "تاريخية . زمنية!"

ثانياً، الشرق الأقصى والأدنى، الدولار السومري والهندسة المصرية والجبر البابلي... (الدائرة، الصفر واللانهاية، فكرات شرقية).

ثالثاً: استناداً إلى هذه المواد الكبيرة، تأتي اللحظة اليونانية. إنها شكل جديد، متقدم ومتفوق لكن بالمعنى الجدلي للبسط ومع تقليص للممكن.

مثال أول: تجريدة فيثاغور، فكرة العد... مع سحر العد، الإعلان أن الواقع أعداد، وأن الكون تناسق وتناغم وموسيقى الخ، مع فكرة الأثير، مع قول أحد الفيثاغوريين بدوران الأرض حول الشمس، وهي الفكرة التي سيلغيها بسط لاحق ومهم (بطليموس) حتى القرن 14 ثم كوبرنيك (ق16). ثم إقليدس، الهندسة الإقليدية: "كل مثلث الخ"<sup>30</sup>. هذا النزوع الفكري: كل! توسيع، تعميم! هذا يستحق وقفة.

6- أهو استقراء induction، الاستقراء الشهير في تعليمنا وراء "منطق علوم" متأخر؟ لا. ولا ريب أن إقليدس وأصحابه كانوا سيستغريون هذا المنطق: "استقراء؟"، بمعنى سيتوارت ميل والقرن التاسع عشر! وربما فرانسيس بيكن أيضاً، ويصدد "طريقة العلوم التجريبية الاختبارية" (طريقة الفيزياء والكيمياء.. ذاتها! فكما أستنتج من كتاب إرنست بلوخ المذكور آنفاً، بيكن لم يتخذ الاستقراء بمعنى اللا استنتاج déduction، أو لم يعتبر العلوم الاختبارية علوماً لا استنتاجية بطريقتها.

28 - أو "عبروا (أفصحوا) في قصور (بقصور) عن قيمة تبادل عليهم المكثرة". ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، الباب الأول، الفصل الأول.

29 - لإنتاج السلعة.

30 - أي: كل مثلث بوجه عام أو كل مثلث قائم الزاوية أو كل مثلث متساوي الأضلاع، لا فرق في ذلك! المهم: كل، وليس هذا المثلث المحسوس الذي رسمته على الورقة والذي ليس إلى وسيلة لعمل الرأس.

على كل حال، منطق ستوارت ميل عكس منطق هيغل وإنجلز، إن تعارض الاستنتاج والاستقراء، تقابلهما، قطبيتهما، الخ. أمر نسبي؛ الاستقراء هو أيضاً الاستنتاج<sup>31</sup>. لا عقل بلا استنتاجية مفهومية، الرأس يذهب إلى الواقع خارج الرأس، مسلحاً بالمفاهيم، بالعام، الكلي، والذي نسميه استقراء (وايحاء الكلمة العربية ممتاز) هو عقل. بل، من جهة أخرى، يمكن القول إن طريقتي الفكر والمعرفة هما الاستنتاج والحدس، وأن الاستقراء هو بالحقيقة الحدس (لا الحدس بمعنى برغسون أو شيلنج الأخير، بل بمعنى هيغل). الاستقراء، هذه "الفقرة" إلى الكل هي رؤية ما، رؤية مستندة على العقل والمعقولة: إيمان (إلهام، وحي، كشف الخ) ب عقالة الكون، رأس مسلح بالمفاهيم (الكليات)، نشاط "سابق" من الحاكمة المحاكمة.

الفضيحة أمام الكل (في صيغة "كل مثلث...")، التي تستهوي اليونانيين) أكبر من فضيحة "الاستقراء" المدرسية: من أين لنا الحق في أن نقفز من عدة حالات أو تجارب إلى القانون، من أربعة معادن إلى كل المعادن (الحرارة تمدد المعادن...)، أو من خمس قطع حديد إلى كل قطع الحديد. لنقل بالأحرى والأصح: إلى المفهوم، العام، إلى المطلق والضروري<sup>32</sup>! من جهتي، تكفي حالة واحدة، لا لكي استنتج أو أستقرئ منها "قانوناً"، بل لكي أقول لنفسي هذا القول البسيط: موجود هنا، إذن هو ممكن، و، موجود في غير هنا أيضاً، في عدة أماكن في كثير من الأماكن "ربما" في ما لا حصر له (ما لا نهاية له) من الأماكن "مبدئياً" أو "نظرياً". هذا النظري والإمكاني واقعي تماماً. أعتقد أن العلماء حين يجدون عنصراً ما (بمعنى علم الكيمياء). وليكن العنصر ب. على الأرض، فإنهم يفكرون: هذا العنصر ب يمكن أن يكون موجوداً في كواكب أخرى، في نجوم وأفلاك وسماوات عديدة<sup>33</sup>. هذه هي معقولة الكون. بدون ذلك، يكون العالم بلا عقل.

مفهوم "الخصوصية" في الذهن العربي اليوم بالغ الالتباس والخطأ. إنه مفهوم ماهوي وصخري، أو لنقل مادي. فيزيقي. مثلاً، بما أن لغتنا هي "لغة الضاد"، نتصور بسهولة أن هذه الضاد خاصة بلغتنا، إنها جزء من خصوصيتنا اللغوية، الماهوية أو الجوهرية. فكرة العقل بالعكس: الضاد موجودة في لغتنا، في نطقنا (وكتابتنا)، إذن هي "على الأرجح" موجودة في لغات أخرى من بين ثلاثة آلاف أو ثلاثين ألف لغة هي لغات شعوب بني آدم. والأمر هكذا فعلاً... إذا حللنا اللغة العربية (أو أي لغة من اللغات) إلى "عناصر". بالمعنى الأنف، لكن أيضاً بجميع المعاني: ذرات، جوانب، وجوه، خصائص أو خصوصيات. فلن يكون هناك عنصر واحد خاص بلغتنا.

31 - إنجلز في جدل الطبيعة.

32 - بالحقيقة، إننا لا نقفز إليه، بل هو أولاً وسلفاً في الرأس المبادر إلى أطروحة "كل مثلث..." الرياضية المفهومية والذي يستخدم المثلث المحسوس أي الرمز، المجرد هو أيضاً، والذي ليس هو الواقع ولا هو المفهوم، بل بالضبط رمز له، صورة يمكن أن استبدالها بغيرها بدون أن يتغير المفهوم - الشكل في الرأس. هذا في الرياضيات: "تجربة" واحدة على الورقة تكفي. لكن هذا النفس لا يلتغي في أي ميدان آخر، بل يندد!

33 - بالحقيقة وجدوا عناصر على الأرض أمامهم، واخترعوا عناصر في رأسهم (المخابر والجدول والحسابات الخ هي امتداده)، ثم عثروا عليها خارج رأسهم...

المتنى موجود في جميع اللغات السامية، وهناك لغات فيها مثلث (عدا عن المفرد والمتنى والجمع)، ولغات مستغنية عن المفرد والجمع والمتنى سواء بسواء. أداة التعريف موجودة في بعض اللغات، وبأشكال مختلفة (أداة واحدة، عدة أدوات) وغير موجودة في لغات أخرى. بعض اللغات الهندو - أوروبية فيها نحو (أقصد تغيير نهاية الاسم وأحياناً أداة التعريف وغير ذلك، بحسب الموقع أي الوظيفة)، هكذا اللاتينية والألمانية والروسية مثلاً، بينما بعض اللغات الهندو - أوروبية ليس فيها نحو، هكذا الفرنسية والإيطالية والإسبانية (وكلها آتية من اللاتينية) والإنكليزية. بعض اللغات فيها مذكر ومؤنث وبعض اللغات مستغنية عنهما. بعض اللغات فيها "اسم وفعل وحرف"، وبعضها فيها أكثر من ذلك أيضاً، والصينية مستغنية عن هذه الأقسام الثلاثة، فضلاً عن كونها مستغنية عن المذكر والمؤنث والمفرد والجمع: في المورفولوجيا (الأشكال، أقسام الكلام). علماً بأن الجميع يستطيعون أن يعبروا، وهم يعبرون عند الحاجة، عن المذكر والمؤنث والمفرد والجمع والمتنى الخ، وذلك بالطريقة التي نحن جميعاً، من عرب وعجم وروم وإفنج وترك وموسكوف وخزر وقرباط وكل من جاورنا من أعاجم، نعبر بها عن الأربعة أو الخمسة أو "ألف الألف" (أي باستعمالنا أداة خاصة من أجل ذلك وكلية الاستعمال: "خمسة"، "أربعة").

معقولة العالم، واقعية العالم، تتضمن وتقتضي هذا: معقولة اللغات جميعاً واعتباطها أو عسفها جميعاً.

هذا إمكان الواقع، احتمالاته. الواقع حمال. بدون هذا كله، بدون هذه الهوية المتساوية وهذا الاختلاف إلى ما لا نهاية داخل الجملة المحددة والمحدودة التي هي اللسان البشري (الألسن)، يكون العالم بلا معقولة وبلا واقعية. أو باختصار: إنه لا يكون. لكن الخصوصية! أليس للغة العربية أية خصوصية؟ مرة أخرى، هذا المصطلح ملتبس، وراكب بشكل قبيح على الوعي واللسان والعقل العربي اليوم، إنه متذبذب بين المفرد والخاص بمجموع خاص، مكرس لعملية الاستغناء عن العمل المنطقي بثلاثية الكلي والخصوصي والمفرد، لصالح العمل المنطقي بثنائية العام والخاص، الضرورية جداً لكن غير الكافية بتاتاً أو هو مكرس لعملية الاستغناء عن هذا المنطق كله لصالح العمل بـ "القياس". المشابهة بين خاص وخاص آخر في عالم هو جواهر وماهيات. ولعل ركبه على اللسان العربي آت من القاموس الفرنسي العلمي أو العلمي الشائع: في هذا القاموس، ثمة تضخم لـ *spécificité* (خصوصية، "توعية").

لذلك أقول: ليس للغة العربية "خصوصية"، بل لها مفردية، أي طابع مفرد، هذه المفردية (الفردة) للغة العربية (أو لسواها من لغات البشر) ليست لأي "عنصر" أو "جانب" أو ما شابه، إنها للجملة، للكل: اللغة العربية.

هكذا العقل وهكذا الواقع. وهكذا كل واقع: ليس في أي شيء أو واقع أو حالة شيء خاص به وحده، لكنه "بمجموعه"، بجملته، خاص. مفرد! هذه الطاولة، هذه الصفحة، هذه القرية اليوم، هذا

البلد، هذه الثورة، هذه الحالة السياسية، هذا العالم الآن. كل منها "شيء" مفرد، أي (إذن) جملة عقلية.

مفهوم المثلث ("كل مثلث...")، قانون الجاذبية، مفهوم القيمة، كلية التناقض الخ، ماهي إلا بسط أو شرح للكلمة الأخيرة: "عقلية". كل منها تعبير عن كيف من كيفات الواقع. والعياني (الجملة) هو المعين إلى النهاية أي إلى ما لا نهاية.

7- إذا ما حللنا العالم إلى "عناصره الأخيرة" فإنه يتساوى، أي ينعدم. الواقع يتحول من واقع إلى مادة، إلى ذرات، إلى خواء وعدم.

أما "البنوية" الباريسية و"الماركسية" فكأنها جاءت إلى العرب، لتثبت الابتعاد عن خط الشكل، خط المنطق والتاريخ، خط أرسطو. هيغل. ماركس، أي لتذوب فكرة العقل البسيطة بتعقيد البنية الجدلية المزعومة. حسب ألتوسير مثلاً، لا توجد ممارسة بوجه عام، توجد ممارسات نوعية خصوصية (اقتصاد، سياسة، أيديولوجيا، نظرية). حسب المنطق، "يوجد" العمل بوجه عام والعمل الخاص المفرد والباقي (أنواع العمل. أنواع الممارسة) وسط متوسط. حسب ألتوسير، لا يوجد تناقض بوجه عام بل "فقط تناقض مُبْنَيْنِ مقَدَّ فائق التعيين الخ". حسب المنطق. هذا الأخير ليس تركيبية بل جملة يكون فيها التشديد على الـ "الخ"، ولا معنى للقول بـ "وجود" مستوى متوسط، مع إلغاء "وجود" مستوى الكل (كلية التناقض)، إلغاء يلغي معه بالتلازم مستوى المفرد. هذا عكس منطق مفهوم القيمة فمنطق القيمة الأساسي إفصاح عن علاقة كونية عامة من فوق كل مستوى متوسط مع نوع: إنتاج زراعي، إنتاج صناعي، منطق القيمة يساوي كذا حنطة مع كذا حذاء مع قصر مع كتب مدرسة مع بندورة مع عملية جراحية الخ.

مبدئياً (مبدأ المنطق). المعرفة تقيم الحد على كلمة "موجود". ثنائية "موجود" و"غير موجود" أول وأهم ثنائيات الأيديولوجيا. الأيديولوجيا تعلم وتلقن: هذا موجود، وهذا غير موجود.

العلماء، الفلاسفة. العلماء عبر العصور، لم يركعوا أمام فكرة ومصطلح الموجود، لم يتركبوا ذات يوم بثنائية موجود وغير موجود. هذه الثنائية (il y a. existe، موجود، هناك، ثمة) تستطيع أن تثبت الأشياء وأن تدحض العفاريات. (لكن الإدراك الحسي أيضاً - بوصفه إدراكاً أي معرفة - قائم على المفهوم والمنطق)، إنها لا تستطيع، بقوة عظمتها وسحرها، أن تقيم رياضيات وفيزياء وكيمياء، وعلم اقتصاد سياسي أو علم تاريخ أو علم نفس، أي معرفة هي فتح للواقع، للكائن، الذي هو الكائن. الصائر، والكائن. العدم الخ.

بل يمكن ويجب القول إن الجواب الذي يعطيه هؤلاء الرجال، بدءاً من السومري مخترع الدولاب مثلاً وصولاً إلى آينشتاين مثلاً، على سؤال: موجود أم غير موجود تجاه موضوعاتهم الرأسية، أي تجاه مثلهم، فكراتهم، مفاهيمهم.

الجواب الذي يعطونه تلقائياً ونزوعياً هو: "موجود"!!

بتعير آخر، كلهم على خط وجود أو واقعية المثل، كلهم على خط أفلاطون، خط "المثالية الموضوعية" idéalism obiectif. وعند هيغل يصل هذا الخط إلى ذروته وإلى حده: المثالية الموضوعية تصير هي المثالية المطلقة idéalism absolu وهي الجدل dialectique "الحديث"، جزئياً و"تاماً". بعده، منطقياً وتاريخياً، تأتي المادية الجدلية أو الجدل المادي والتاريخي الذي هو أولاً المنطق. هذا التعاقب الأخير ليس صدفة. ليس صدفة أن ماركس أت. رئيسياً وأساسياً، من هيغل، وليس من مادية القرن الثامن عشر أو سواها، ليس صدفة أن فويرباخ مجرد حلقة وسيطة وعابرة، وإنه "فقير بالمقارنة مع هيغل" (إنجلز، لينين<sup>34</sup>)، وأن لا وجود له في كتاب رأس المال، في منطق "رأس المال"، وفي جدل الطبيعة أو في المدخل<sup>34</sup>، وأن الذي يستحوذ على انتباه لينين عند فويرباخ، في سنة 1916 أي في الأقسام الرئيسية من الدفاتر الفلسفية، هو فويرباخ الهيجلي، فويرباخ الجدلي. هذا "التعاقب" هيغل - ماركس، هيغل - لينين 1916 بل وأفلاطون - لينين 1916 ضرورة منطقية وعملية.

أفلاطون ولينين، أينشتاين وفيتاغور، ديكارت وابن رشد، الخوارزمي ونيوتن، ابن الهيثم وراماكريشنا، مخترع (مخترعو) الصفر ومخترع (مخترعو) القيمة، مخترعو الحق والطبيعة والروح والوجدان والإنسان والمجتمع والأمة الخ، كلهم، على حد سواء، مؤمنون بواقعية المثل أو مُثلية الواقع. هذا أولاً، ثم ثانياً هم مختلفون، مضاربون ومتضاربون على السؤال: كيف؟ بأي معنى؟ وما المعنى؟

بأي معنى، المثل واقعية؟ ما معنى أن الواقع مُثلي أو - إذا شئتم - مثالي؟ أفلاطون لا ينفي وجود الأشياء، وجودها خارج الرأس، كوجود existence. إنه يؤمن بأنها ليست الواقع، "الواقع الحق". صوابه، إصابته، مأثرته<sup>35</sup>، "سابقة" لباطله وضلاله: إنه يقذف المثل إلى فوق ككائنات مفردة (الحصان المثالي، بل والمثلث المثالي<sup>36</sup>) هذا يكشف عن اختلاط تجريبي رياضي كجواهر ماهية (أو لنقل مادية ظاهرة)، وكواقع حق تكون أشياء الدنيا ظلاله الباهتة، عالم الأشباح. أرسطو يقف على هذا الخط - المثل - يسأل وينقد ويدحض، مؤكداً على الواقعية الجسمية المادية، ويمضي بفضل المثل إلى الشكل والمفهوم، إلى منطق الشكل والمفهوم، منطق الهوية، لينين وراء ميتافيزيقيا أرسطو يعود في سنة 1916 إلى أفلاطون ومسألة المثل، يحاور ويجابه أفلاطون على هذه القضية، في صفحة لعلها أهم صفحات الدفاتر الفلسفية. الماركسيون طووها. سوف نعود إليها في مكان لاحق.

34 - أي المدخل العام إلى نقد الاقتصاد السياسي، مخطوطة 1857.

35 - "اختراع" المثل، إذن المفاهيم. فصل!

36 - هذا يكشف عن اختلاط تجريبي رياضي.

بين لينين وأفلاطون مسألة مشتركة. الماركسيون دونها، قبلها، ماركسيو باريس وعلماء باريسيون حقيقيون غير ماركسيين<sup>37</sup> ينتقدون ماركس من عل، ويقولون أو يكشفون أن ماركس واقع في مسألة *problematique* واحدة مع ريكاردو، فيدافع آخرون عن ماركس ويقولون: لا، لقد غير ماركس المسألة. قبل هذا كله، يجب أن نقول ثمة أيضاً وأولاً مسألة (ولاحاجة لـ "مسألة!") مشتركة بين لينين وأفلاطون، وبين ماركس و"الإنسان الأول"! لحسن الحظ!! وهذا هو الأساس لكل مسألة، ولتغيير كل مسألة، ولإنشاء أية مسأليات جديدة في العلوم وغيرها.

7- حين نقول: منطق، جدل، فهذا يعني أو يستدعي: تناقضاً. لكنه التناقض المفهومي، وليس تناقض سخور، أو صراع ماديات أو جواهر روحية، إنه منطق. وكل ما سبق يمكن - بشكل من الأشكال - أن يوضع تحت هذا العنوان: التناقض كمنطق.

لكن لا بأس من إعطاء فكرة حادة عن القضية، في صدد الرياضيات. لقد ذكرنا في مكان آنف أن هيغل الشاب تلمس فكرة العقل (*vornunft*) على فضيحة العدد الأصم، اللامعقول *irrational*، أي  $2\sqrt{2}$  (جذر اثنين) مثلاً أو  $\pi$  (الحرف  $\pi$ ) أي النسبة الثابتة أو العلاقة الدائمة بين طول محيط الدائرة وقطرها. هيغل الشاب يلاحظ: لقد سموه "لامعقولاً"، في حين أنه يجب أن يتخذ كمدخل إلى فكرة العقل *vemunft*<sup>38</sup>. المترجم الفرنسي ترجم هذه الكلمة الحاسمة: عقل أعلى، يمكن أن تترجم أيضاً: عقل أبدى أو "أبدأ"، أكثر بدئية أو أساسية. فكرة العقل العادية (المحاكمة، الفكر المخاطب أو المحاكم *discursil*) هي الـ *entendement. Verstand*، الفهم.

بالفعل، اعتبر اليونانيون، ويمكن أن نعتبر، قضية جذر 2، فضيحة كبيرة. عدد وغير معقول، عدد وغير قابل للقياس! فالعقل منطق، والعقل قياس والرياضيات علم القياس، أي التقايس. في الصف الأول الابتدائي، يكون معنا مجموعة أقلام متفاوتة في الطول. هذا القلم الأحمر طول 2 طول القلم الأخضر، والأسود طوله 4 طول القلم الأخضر، الخ، نتخذ الأخضر وحدة قياس، 1، يكون الأحمر 2 والأسود 4 والأصفر 5 الخ. هذا هو القياس. التقايس. ويقودنا، في صف آخر أو في درس آخر، إلى فكرة القياس. المتر (متر *metre* تعني أصلاً "قياس" *mesure*) الاصطلاحية، لكن التي هي موضوعياً، بالتعريف (تعريفه الأول)، نسبة محددة هي جزء واحد من مليون جزء من الربع (ربع طول "دائرة" الأرض مروراً بالقطبين). العالم علاقة، نسبة، تقايس، قسمة. (هذا معناه أيضاً أن العالم، إذا أردنا التكلم عنه بلغة العمليات الحسابية الأربعة، هو قسمة وليس جمعاً وطرحاً، أو "أكثر" من كونه جمعاً وطرحاً: هذه أيضاً فكرة العقل: نسبة، قسمة، وتكثير...).

37 - ميشيل فوكو، في الكلمات والأشياء. ذكره، أميل بوتجيلي في ندوة الماركسية والبنوية. باريس (بالفرنسية).

38 - انظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، دار الحقيقة (بشكل خاص، الجزء الأول).

إذاً واجه اليونانيون مسألة قطر المربع، المربع شكل بسيط جداً، كامل، مثالي، أربع زوايا قائمة وأربع أضلاع متساوية. ونرسم القطر. ما قطر المربع، أي ما نسبة قطره إلى ضلعه، في الطول؟ بتعبير آخر، طول الضلع 1 ما طول القطر هذا القطر للمربع هو قاعدة المثلث القائم الزاوية. إذا فمربع طوله، بموجب دستور فيثاغور الشهير، هو حاصل جميع مربعي طولي ضلعي المثلث القائم الزاوية، إذن  $1^2 + 1^2 = 2 = 1+1$  إذن طول قطر المربع هو  $2\sqrt{2}$ ، جذر 2 بعد ذلك، أرادوا ونريد تلقائياً، جعل هذا الـ  $2\sqrt{2}$  نسبة، قياساً، سراً من نوع  $3/4$  أو  $5/8$  أو  $1451/1966$  لا فرق في ذلك. يمكن أن ندفع طول الصورة والمخرج حتى مدينة طوكيو، أو أن نجعل المخرج أكبر من الصورة، لا فرق في ذلك؛ المهم أن يكون كسراً، شكل كسر، نسبة بين "عددين"، "مادام" أنه بين القطر والضلع نسبة، علاقة، ثابتة، جلية، كلية ومطلقة. (كذلك عن محيط الدائرة وقطرها.  $\pi$  معرفة بهذه النسبة الدائمة والمطلقة بينهما). مستحيل!

مستحيل. . غير قابل للقياس *incommensurable*، لا معقول، أصم (لا ينفصح)، متعال، متفارق، خارق *transcendant*، تسميات جيدة، وموحية. يجب أن نفهمها، أن نعقلها، أن نضع الحد" عليها.

$2\sqrt{2} = 1.414213.00000$  إلى آخره، إلى ما لا نهاية. هذا معروف ومشهور بل . لسوء الحظ، بمعنى ما . مشهور لدرجة طغيانه على ما عداه، والتهامه لمسألة النسبة، ومعقولية العقل والكون! ولسوء الحظ. يوجد اليوم، في أيدي الناس والأولاد، حاسبات من أجل هذا ربما (إذا كانت الحاسبة كبيرة) من أجل متابعة الحساب! ما أجمل الأرقام و"اللانهاية" ("اللانهاية السيئة"، حسب هيغل، الخط المستقيم...).

كذلك  $\pi = 3.141500000$  هذا أيضاً معروف ومشهور...

لكن  $4/3 = 1.33330000$  إلى ما لا نهاية،

و  $7/9 = 1.285714200000$  مع تكرار مسلسل الأرقام الذي وضعنا تحته خطأً، تكراره إلى

ما لا نهاية.

مع ذلك، ليس  $3/4$  أو  $7/9$  عدداً لا يقاس، أصم، غير معقول الخ. بالعكس، إنه فصيح، إنه نسبة، أقصد نسبة عددية ظاهرة. ويسمى في الاصطلاح الرياضي: معقول؟ إنه وأمثاله جميعاً يدخل في عداد مجموعة مجموعات الأعداد المعقولة.

لكن فصاحة الكون والعقل (*vemunft*، لوغوس، جدل) ليست، على ما يبدو، فصاحة الأعداد والعد والحساب لا بهذا المعنى ولا مع توسيعه. هذا في جذر فكرة المنطق: هيغل.

لسوء الحظ، الذهن العربي (وغيره) مشدود نحو الرمزية والمحسوسية والشينية والعددية والذرية الكتلية، يتخذ من الرمز بديلاً عن المفهوم ومن الأشياء بديلاً عن الواقع: الواقع هو المحسوس؛ العياني أو *concret* هو الملموس (وثمة فيض من محسوس وملموس في أدبيات زمن



كومونات 1970)؛ الواقع هو "المثل - الأشياء)، إذن ليس أقلاطون، بل وحدة الأشباح وأقلاطون العضوية التلاحم. أعتقد أن التعليم المدرسي في "جزء" منه يحمل "جزءاً من المسؤولية"<sup>39</sup>. ثمة تطور حقيقي في البرامج، الكتب، المعلمون مقصرون، لكنني - بالضبط - أقتح ... مزيداً من جذرية، تحولاً نحو منطق الأساس. الرياضيات ليست "مادة"، وبوجه عام يجب إقامة الحد على فكرة المادة التعليمية. كيف نعلم فكرة المجموعة بدون فكرة المنطق؟ ثمة اليوم، بمعنى ما، نزوع نحو الإنسان العادي والطبيعة والحياة الخ. لكن الإنسان العادي والطبيعية والحياة العادية منطق: هذا ما يجب أخذ وعيه.

الذهن العربي، في جذر 2 و  $\pi$  الخ، ينشد نحو المحسوس، الرمز، الكتابة المرئية. فكرة "الأصم" تختلط بما بعد الفاصلة الذي لا ينتهي، وتغرق فيه. لكن كذلك العدد العادي، مثلاً العدد 3 أو 8 يصير المفهوم، مفهوم العدد 3 أو العدد 8 هو الرمز الكتابي المكتوب بالأحمر والأصفر الذي يُرى ويلمس ويذاق ويتقلص الواقع (واقع أو واقعية العدد) إلى الأشياء المنتصبة أمامنا (بالونات، أقلام، نقاحات) وأمثالها من أشياء. و"الرياضيات الحديثة" بحجة الترميز وأهمية الترميز الأكيدة تخدم الرمزية من أجل عالم رموز! هذا يذهب ضد الواقع كواقع وكعقل. لنقل أن الرمز 3 أو 3 أو ثلاثة الخ (أو 6 أو 4) ليس مفهوم الثلاثة ولا واقع الثلاثة، إن هذا الرمز اصطلاحى واعتباطى ويمكن أن يبدل وأن يأخذ ألف شكل. لنقل أن الثلاثة الحقيقية أو الخمسة الحقيقية ليست على السبورة أو على الورقة ولا هي محصورة في البالونات والأقلام، بل هي موجودة في الرأس /و/ في الكون خارج الرأس، كعلاقة كونية.

لنذكر أخيراً، من أجل لحن التناقض المفهومي كأساس، وكتثبيت لاستحالة الإفصاح، كسرياً - عددياً، عن العدد الأصم، بأنه يوجد برهان رياضى على هذه الاستحالة، برهان بسيط. ولعله من الأفضل أن ننقله للقارئ ضد عدوى الرمزية وسقوط بنية العقل والعالم.

هذا البرهان هو برهان بالخلف أو بالعكس ("par l'absurde")، وهو طريقة برهان أساسية في الرياضيات. افترض أن القضية التي أريد البرهان عليها باطلة وأن الحقيقة هي عكسها، نقيضها، انطلق من هذه الفرضية وانتهى إلى تناقضها وعدم معقوليتها وعبثها.

افترض أن  $2\sqrt{2}$  = كسر عددي، وليكن ج/ر، كسراً غير قابل للاختصار، أي كسراً أخيراً. أو بتعبير آخر، إذا كان قابلاً للاختصار فإنني أختصره سلفاً حتى شكله الأخير غير القابل للاختصار، وليكن (بدلاً من ج/ر) ب/ر. هذا الكسر ليس قابلاً للاختصار، ليس في تكوين الصورة والمخرج عامل مشترك (مثلاً 2 أو 3 أو 7) أستطيع حذفه من الصورة والمخرج معاً.

انطلق:

39 - أشدد على "جزء".

$$2\sqrt{b/n} = 2\sqrt{b^2/n^2} \text{ إذن } 2\sqrt{b^2/n^2} = 2\sqrt{b^2/n^2}$$

$2\sqrt{b^2/n^2}$  هي عدد زوجي (بفضل المعامل 2). إذن  $b^2/n^2$  هي عدد زوجي. إذن  $b/n$  هي عدد زوجي (فكل عدد زوجي مربعه زوجي وكل عدد فردي مربعه فردي حتماً: 1 مربعها 1، 3 مربعها 9، 5 مربعها 25، 7 مربعها 49 وهذا إلى ما لا نهاية...).

إذن، بما أن  $b/n$  عدد زوجي، ف  $b^2/n^2$  عدد زوجي مرتين (نربع كل عدد زوجي مرتين، على الأقل. العدد الزوجي هو العدد الذي يتضمن العامل، 2 وهذا العامل 2 في عملية التربيع يتربع أي يصير  $2 \times 2$ ). إذن،  $b^2/n^2$  عدد زوجي مرتين (على الأقل). إذن  $b/n$  عدد زوجي. إذن  $b/n$  عدد زوجي (المربع الزوجي هو، كما ذكرناه أعلاه، مربع لعدد زوجي حتماً).

بما أن  $b/n$  عدد زوجي، إذن الكسر  $b/n$  قابل للاختصار. وهذا عكس منطلقنا ذاته. إذن منطلقنا باطل. ولا يمكن أن يكون  $2\sqrt{b/n}$  مساوياً لـ  $b/n$ ....

نسبة قطر المربع على ضلع المربع لا تتفصح بالمعنى المذكور، مع أنها فصيحة بمعنى آخر. هذه قضية هيغل الشاب أو المبتدئ، تاريخ الرياضيات، "من البداية"، ينزع نحو تخطي "مادته" الأصلية، بموجب العقل.

يمكن القول أن نفس "الإيجابية" هو: لا للتخطي، لا للأبعد، نعم لهذا، للأقرب. هذا النفس، (شأنه شأن نقيضه)، نفس بشري صميمي، طبيعي، معقول بل وجيد ضمن حدوده. لكن "الإيجابية" الفلسفية تجلي هذا النفس فلسفياً، تنتظره، تضي عليه ألقاب العلمية والتقدم. في هذا الحال، إنه ليس سوى شطح من المنطلق، وبصرف النظر عن أية "صوفيات" مضافة.

الجدل (العقل) هو إقامة الحد على معقول الإيجابية.

8- حساب الاحتمالات ميدان واسع إلى ما لا نهاية.

إذا قذفت قطعة من النقود في الهواء، فإنها ستسقط إما على هذا الوجه ("أحمر") أو على ذلك ("أبيض"). احتمالان، وإذا كان وجهها القطعة متساويين فيزيقياً، يكون الاحتمالان متساويين. بما أنهما ليسا كذلك تماماً، قد يكون الاحتمالان 49.5% و 50.5% مثلاً. يمكن أن نحسب الاحتمالين الرياضيين - الفيزيائيين. نكرر التجربة بضعة آلاف من المرات، أو نجريها دفعة واحدة على آلاف من القطع المتماثلة. هكذا فكرة "قانون الأعداد الكبيرة" في "علم الإحصاء" وهذا القانون لا يحدد أو يعين، لا من قريب ولا من بعيد، أية حالة - فردة. يمكن أن أكرر التجربة المفردة عشرات المرات وأن أحصل في العشر مرات على الوجه "أحمر": هذا لا يغير شيئاً من احتمالي التجربة الحادية عشرة: يبقيان متساويين (أو يبقيان هذا 49.5% وذاك 50.5%). "الضربات مستقلة". في تجربة الألف قطعة معاً. القطع مستقلة...

احتمالان متساويان، 50%، و 50%. هذا مبدأ اليانصيب. إن احتمال فوز البطاقة الحاملة الرقم 73952 ليس أكبر من احتمال فوز البطاقة 22222 أو البطاقة خمسة أصفار. لكل من

هذه البطاقات نفس احتمال الفوز. إنه واحد من مئة ألف، لكل من البطاقات المتسلسلة من الصفر حتى 99.999. الدوايب مستقلة، الأعداد متسلسلة على خط مستقيم ووحيد الاتجاه من الصفر حتى 99.999.

ليس الأمر هكذا في لعبة طاولة الزهر: هنا التسلسل الأحادي ملغى، لا فرق بين "5.6" أو "6.5"، لا "مواقع". كلاهما "شيش بيش".

لذلك فاحتمال الشيش بيش (6، 5 أو 5، 6) بلا فرق) هو 2 بينما احتمال الـ "دوشيش (6، 6) هو 1. إذا صنعت جدولاً من  $(6 \times 6) = 36$  احتمالاً، يكون احتمال الـ "6 و 6" 1 من 36 ويكون احتمال الـ 6 و 5 أو 5 و 6 معاً (إذا لا فرق بينهما بمبدأ اللعبة) 2 من 36...

هذه فكرة حساب الاحتمالات، "نظرية الحظوظ"<sup>40</sup>. لكن الميدان الرياضي المسمى "حساب الاحتمالات" أوسع بكثير، إنه علم كبير: قوانين، معادلات، دساتير، الخ، وهي جميعاً قوانين أو مفاهيم، ونذكر منها: قانون الأعداد الكبيرة، منحني غاوس "أو المنحني شكل الجرس"، المتوسط والمتوسطات بأنواعها (حسابي، هندسي...)، دستور الانحراف التربيعي، الخ. هذا العلم الكبير يجد اليوم تطبيقاً واسعاً في كل المجالات العلمية، من الفيزياء إلى الاقتصاد إلى الألسنية.

ومع ذلك فإن فكرة الاحتمال البسيطة "أكبر" من ميدان "حساب الاحتمالات" وأبسط. الإنسان في حياته اليومية يواجه احتمالات. إنه محكوم أي معين (أسباب، شروط، ظروف)، لكنه، مع ذلك وبذلك، له وعليه أن يختار. يحسب، يعقل، يختار، ويتحمل التبعات... هكذا العمل الإنساني وهكذا السلوك. هكذا السياسة. هكذا "سوق الحرب"، قيادتها، "استراتيجيتها"، بدءاً من قائد الجيوش حتى قائد مفرزة صغيرة أو جندي معزول. معيّن ومعيّن. خياره، تعيينه هو "العنصر الأخير" في جملة التعيّن العينية، التي هي العمل نفسه، التصرف، والداخلة في جملة كونية لا نهاية لها.

فلسفة كونت ضد حساب الاحتمالات. ماركسية ستالين كذلك. الأولى عظمت القانون ورفضت السببية ورفضت ثنائية الضرورة والصدفة. الثانية عظمت القانون والسببية والضرورة ورفضت الصدفة. بين قاموسي المدرستين فروق وتعارضات. لكن القاموسين واحد بالأساس: قاموس مانوي، وثني: كلمات تعظم، تقدس، تؤله، وكلمات ترذل وتشيطان. في القاموس الماركسي السائد، الضرورة تذهب نحو "الحتمية" بالإيحاء المباشر للكلمة العربية: حتمية. لنلاحظ أن الكلمة الفرنسية *déterminisme* تعني مبدئياً تعيّنية، تحدّدية. الحتمي هو المعين بالتمام، الذي انحسم: هكذا يجب أن نفهم القضية. ومن البديهي أن فروق الكلمات من لغة إلى أخرى ليست أساس القضية. العقل البشري واحد، ودوافع. الشطط - مبدئياً - واحدة. كلمات ضرورة، تعيّن الخ، في القاموس الماركسي المتداول بشتى اللغات، جنحت جنوحاً واحداً، مع أن كلمة ضرورة *mécessité* في

40 - باسكال، اللاهوتي الميتافيزيقي، اختتم بهذا لكن على لعبات أصعب، أعتقد...

الاستعمال الشعبي، العربي والأوروبي، يمكن أن لا توحى بالاحتمية، إنها تحمل معنى الحاجة، وهي ليست "بعيدة" عن الأطروحة الشهيرة، الألمانية والماركسية (أو على الأقل ليست "مانعة" لـ ممتعة عن هذه الأطروحة" القائلة: الحرية هي فهم الضرورة، الحرية هي وعي الضرورة. ثمة ضرورة وضرورات يجب أن توعى. تعين الواقع متوقف أيضاً على هذا الوعي.

الضرورة ضرورة وعرض. والضرورة ضرورة وحرية، وعي، خيار.

والضرورة احتمالية. البشرية في سنة 1982 العرب الآن، أمام ضرورة وضرورات، يجب أن توعى، أي هم أمام احتمالات، في مفترق. ليس ثمة "حتمية" لانتصار الاشتراكية أو لأي شيء من هذا القبيل (وحدة عربية، ديمقراطية). هذه ضرورات يجب أن توعى. لكن، في الحالة الأخرى، ثمة احتمالات أخرى، قبيحة إلى ما لا نهاية، هذه النقطة الصغيرة جداً كبيرة جداً، إلى ما لا نهاية.

9- الضرورة احتمالية. والماركسية السوفياتية الشعبية تتجدنا اليوم وعلى علم الفيزياء! الأزمنة تغيرت. حتى الحتمية الفيزيقية لميكانيكا الأجسام تتجدلن. أنقل إذا القضية عن كتاب سوفيتي شعبي صغير. الأمثلة المأخوذة من علم الفيزياء العادي كثيرة وكلها تغني لحناً واحداً وكلها تسمى "معجزة"، معجزة فلان أو فلان من علماء الفيزياء المعاصرين الذين صاغوا هذه المعجزات نظرياً، شكلاً وقطعاً (بعضهم كانوا قبل ثلاثين عاماً بأنهم مثاليون لعينون، ولعلمهم كذلك، لكن هذا لا يغير حرفاً من المسألة). القضية هي في مستوى ما كما ندعوه وما يجب أن ندعوه "دروس الأشياء". إنه مستوى عظيم، نظرياً وعملياً. لكن، بالضبط، يجب "إقامة الحد" على المستويات العظيمة. سأخذ مثلاً واحداً، ولنسميه معجزة الكرسي.<sup>41</sup>

هذا الكرسي أمامي راکز على الأرض، ثابت. لا يمكن أن يصعد تلقائياً. إنه هامد، عاطل، ليس فيه قوة ذاتية، حركة، حياة، قدرة الخ. لكنه راکز على أرض الغرفة بسبب قوة، هي قوة الجاذبية، جاذبية الكرة الأرضية. فالجاذبية قوة، سواء أحب كونت القوة أو لا. قوة مجردة، واقعية، كونية. (وكذلك عكسها أيضاً، حسب هيغل وإنجلز، فلسفياً ضد علم فيزياء العصر، وإلا، لو كان الجذب في الكون بدون النذب، لتجمع الكون في نقطة). والمرونة قوة: بفضلها تعود الإسفنجة تلقائياً إلى شكلها السابق. بعد ضغطنا إياها؛ والمغناطيسية قوة كونية فاعلة تماماً. بسبب قوة الجاذبية الكرسي لا يرتفع في الهواء، بل هو قاعد وثابت في مكانه. وأستطيع في هذه اللحظة، أن "أتركه" من فوق الشرفة، سيسقط إلى الشارع، بسبب قوة جاذبية الأرض. حتى يرتفع إلى أعلى، يحتاج إلى قوة معاكسة: أستطيع أن أرفعه بيدي أو بالانتئين معاً. تلقائياً، لن يرتفع. سكونه في مكانه: حتمية. لكن!

41 - هذه "المعجزات" أمثلة حسية جداً ومفهومية ونظرية جداً. هذا (علماء هذا القرن) يذكرنا باليونانيين الأوائل!

لكن ثمة جانب آخر، مستوى آخر، غير كل الذي ذكرناه. فالحتمية تعينية، والتعيين هنا تعيين (تحديد وقرار) من الجاذبية. لكن الجاذبية ليست "كل" الواقع! هذا الكرسي مؤلف من "ذرات" موليكولات. "كتل صغيرة"، عددها بالملايين. وهذه "الكتل الصغيرة" متحركة إلى ما لا نهاية: هذا هو مفهوم المادة - الحركة، الثنائي المادي الأشهر! وهذه الحركة لملايين أو مليارات "الموليكولات" عشوائية، فوضى، صدف ومصادفات إلى ما لا نهاية: هذا ميدان حساب الاحتمالات، العلم القانوني! في هذه اللحظة، مليارات الموليكولات تتحرك في شتى الاتجاهات، إلى تحت وفوق واليمين واليسار الخ، في ملايين الاتجاهات. لنقل، تحديداً، إن عدد الموليكولات منته، محدد، ومعلوم (من قبل العلماء)، أما "عدد" الاتجاهات الممكنة والفعلية فهو اللانهاية. (من نقطة ما، ينطلق ما لا حصر له من الاتجاهات، ما لا نهاية له من الخطوط، هذا في ذات مفهوم النقطة)... لأن عدد الموليكولات كبير جداً، ولأن حركتها كمجموع عشوائية<sup>42</sup>، لذلك هذا الدفع الذاتي الداخلي ملغى عملياً، لذلك الكرسي هامد، ميت، ومرتاح في مكانه بتعيين من الجاذبية (إن. "وزنه" و"ثقله": مفهوم تابع للجاذبية، جاذبية الأرض). لكن لا حتمية، بالمعنى القطعي والمطلق. بل احتمال واحتمالات. وتحسب.

ثمة احتمال صغير جداً لأن تكون أكثرية الموليكولات ذاهبة في هذه اللحظة في اتجاه واحد أو متقارب وأقليتها في اتجاهات أخرى. احتمال قريب جداً من الصفر. لنقل احتمال 0.0000001 (من الواحد). واحتمال أن تكون أكثرية كبيرة ذاهبة في هذا الاتجاه الواحد (وليكن إلى فوق)، بل كبيرة جداً بحيث يغدو هذا الدفع الذاتي أقوى من الجاذبية، مع تحيد والتغاء الدفعات الداخلية الأخرى الممكنة، إن هذا الاحتمال أصغر بكثير، وأقرب إلى الصفر بكثير. لنقل إنه يقدر برقم صفر ثم عشرين صفراً أو ثلاثين صفراً بعد الفاصلة، لنقل أيضاً أنه صغير إلى ما لا نهاية، قريب من الصفر إلى ما لا نهاية، نحو الصفر. هذا وجود الصفر (ووجود اللانهاية)، في معقولة الدنيا<sup>43</sup>.

إذاً هذا الكرسي يمكن أن يرتفع الآن، ويمكن أن يصل إلى سقف الغرفة، ويمكن أن يبقى عند السقف دقيقة، يوماً، سنة، ألف سنة، هذا مسلسل احتمال يتضاءل ويتضاءل إلى ما لا نهاية: يكون معنا ملايين الأصفار بعد الفاصلة، "ما لا نهاية له" من الأصفار بعد الفاصلة بعد الصفر، لكن بدون أن نبلغ الصفر، تجريدة الصفر العريقة الحديثة! الأرجح أن الكرسي سيبقى في مكانه ليس فقط اليوم بل لمئات السنين القادمة، إنه سيهترئ وسيغنى هو وخلفاؤه بدون أن يصعد أحدهم إلى السقف، وربما ستغنى الأرض كلها والمجموعة الشمسية أيضاً قبل حدوث معجزة كهذه، لكن

42 - "قانون الأعداد الكبيرة"، منحنى غاوس، علم الاحتمالات الخ = قانون العشوائية.

43 - اللانهاية ليست فقط في الاتساع الكوسموسي الكبير "إلى ما لا نهاية" اللانهاية قائمة في المنتهى نفسه. هذا خط قديم، ويبرز في فلسفة عصر النهضة.

من لا يؤمن بهذا النوع من "المعجزات" (والأمثلة كثيرة، أي مبادئها الفيزيائية متعددة<sup>44</sup>) يقف خارج علم الفيزياء.

فكرة الضرورة مستويات. حين أكون مع شيء محدد، هكذا تكون ضرورة احتمالية. ضرورة خاضعة دوماً، في جانب من جوانب الشيء أو الموضوع، للاحتتمالية.

وبالطبع، ليس التاريخ، أو السياسة، أو الحرب، الخ، ميدان الأشياء، ميدان "الحتمية"، ميدان الحتمية والصدفة، "ومعجزة الكرسي". هنا، في التاريخ والسياسة والحرب والحياة الخ، الاحتمال الأكبر بكثير من باب لمعجزة الكرسي أو لغيرها من معجزات الفيزياء الحاضرة.

الحتمية هي دوماً التعيُّنية على نحو ما ذكرنا. الإنسان، عملاً وعلماً، يقطع، يعزل، ثم يجمع جوانب، يصل إلى مجموع. هذا طريق العمل والمعرفة. لكن على الإنسان أن يعي ذلك، أن يعي أنه يقطع، وأن ثمة فرقاً بين فكرة الجملة والمجموع، أن الجمع لا نهاية له، وأن عمل القطع والجمع يجب أن يستند إلى وعي لصفراً ولا نهاية، لعدم وكائن.

ليست الفيزياء النووية ولا مئة جدلية لعلوم هي التي تستطيع أن تدرك، في صعيد الوعي والفكر والنظرية، المعالجة الميكانيكية للعالم والبشر، أو أن تساعد على درء هذه المعالجة الميكانيكية في صعيد العمل والمشروع الإنساني الكبير، بل المنطق المرتكز على تجريدة الكائن - العدم للفلسفة المادية الحقيقية: "أنا أفكر"، الكائن كله خارج الرأس. إنه، عند هذا المنطلق لنظرية المعرفة، عدم فيما عدا كونه بتمامه خارج الرأس<sup>45</sup>، ولا يصير هو الكائن - الكائن إلا في نهاية مسيرة المعرفة، التي هي مسيرة إنشاء مفهومية لهذا الكائن الحقيقي بوصفه جملة.

#### 10- السبب (فكرة السببية) قطعة من الجملة.

يمكن أن ننسب هذه الفكرة أو هذا المفهوم (سبب . أثر، أسباب . نتائج) إلى المنطق القديم، إلى "مبدأ العلة الكافية"، وإلى فكرة الضرورة التقليدية، لا يحدث شيء بدون علة كافية؛ وإذا تكررت نفس الأسباب في نفس الشروط والظروف حصلت نفس الظاهرة...

علمياً، اللحن واحد. وأصوله قديمة. المنطق اخترعه أرسطو، ولم يخترعه: إنه منطق الإنسان الصانع - العاقل، التاريخي. مفهوم السبب ينبت في رأس البشرية، بالارتباط مع العمل والتكرار. مبادئ المنطق، عمليات المنطق يكررها الإنسان ملايين المرات بعمله، بصناعته، الإنسان يتبين أن هناك أسباباً ونتائج: أسباباً وعواقب. يتبين ذلك بالعمل والتكرار، في مجالات مختلفة، محددة ومعطاة. هكذا يتشكل عقله، ينمو، ينبسط، تتظاهر وتتوقع الإمكانيات. "الإنسان العاقل" شرط للثورة النيوليتية، المسافة الزمنية بينهما غير قصيرة. الإنسان ينتقل إلى الإنتاج بحصر المعنى

44 - مثلاً: معجزة الطنجرة وهي على غير موضوع الجاذبية والحركة والسكون، موضوعها الغليان والتبخير والتجلد...

45 - في الحاصل، في الأخير هذا هو الخلاف، هذا هو الخلاف الحقيقي الوحيد بين لينين وهيجل. لينين يثور ضد هيجل، كلما لاحظ أن هذا الأخير يبيع هذه النقطة ("الخارجية"، الطابع الخارجي للأشياء، للواقع كله) في سياق حربه الصحيحة ضد الانطباعية (تمثال الشمع، الانعكاس بالمعنى العادي)، أي أنه يلغي المادية بذريعة الجدل.

(زراعة، تربية حيوان)... بمعنى ما، الثورة المتمثلة بمنطق أرسطو هي تنظير لحالة موجودة ومتقدمة، ونهائية...

فتوحات الأزمنة الحديثة الكلاسيكية، من فلسفة وعلوم، بعد فتوحات العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية، هي، بين حملة أمور، انتصار لفكرة العلة والسبب. العلوم تعلل الظواهرات، الفلسفة تفسر العالم. الجاذبية سبب سقوط تفاحة نيوتن وسبب لأمر كثيرة. الضغط الجوي سبب لارتفاع الماء في الأنابيب، وارتفاع الزئبق في القارورة. ثمة فرق بين فكرة القانون وفكرة السبب. القانون تعبير عن علاقة. السبب علاقة محددة، علاقة تسبب وإنجاب وإنتاج. يمكن أن تكون هناك علاقة تناسب بين آ وب بدون أن تكون هذه العلاقة سبب. نتيجة، وهذه العلاقة القانونية غير السببية تتخذ تعبيراً رياضياً<sup>46</sup>، هكذا أيضاً، نعمل مع الضغط الجوي والسائل، مع الحرارة وتمدد المعدن. علاقة تناسب رياضية، لكن هذا لا يغير فكرة أن الضغط الجوي هو سبب ارتفاع السائل، وأن الحرارة هي سبب تمدد المعادن، بل هو بالأحرى قائم على هذه الفكرة، على هذا المفهوم، على هذه الحقيقة: سبب.

غير أن أوغست كونت وآخرين كثيرين أنشدوا غير هذا اللحن، رفضوا فكرة السبب والسببية والعلة والتعليل. اعتبروها فكرة قديمة، بالية، ميتافيزيقية ولا علمية. رفضوا "لماذا؟"، اكتفوا بـ "كيف؟". واستمر هذا الموقف وتواصل في ما يسمى منطق العلوم حتى أواسط القرن العشرين في الغرب.

هذا الموقف من كونت ينتسب على هذه النقطة إلى الفيلسوف الإنكليزي، التجريبي الكلاسيكي الكبير، ديفيد هيوم، إلى نقد هيوم للسببية. لكن من هيوم إلى كونت ننتكس بشكل حاد: من المسألية إلى الإجابة النهائية، من الرببية إلى الدوغماتيقا.

حسب هيوم، السببية لفظ غير مبرر ومضلل يطلق على ما هو بالحقيقة علاقة تعاقب ثابتة وذات اتجاه واحد بين ظاهرة آ وظاهرة ب. كلما كانت آ، تبعتها ب. هذا (تعاقب) هو ما نراه، ما ندركه، هكذا تجربتنا أو خبرتنا. فبأي حق نتخطاها ونعلن فكرة تسبب، تعليل، إنجاب؟ هيوم يضيف أننا لا نقول أن النهار سبب الليل لأن التعاقب هنا مزدوج، الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل. فكرته هي إذاً أن السببية المزعومة ما هي بالحقيقة سوى "تعاقب ثابت وحيد الاتجاه". وذلك استناداً إلى الخبرة، إلى التجربة، التي لا يجوز أن تتخطى: "بعد آ" لا يعني "بسبب آ"!

إنجلز، في صفحة مهمة من جدل الطبيعة، يجادل هيوم: أولاً، هيوم على حق: "بعد آ" ليس "بسبب آ"، ثمة بون شاسع بين القولين. ثانياً، إنجلز يدخل التجربة لكن كعمل، كفاعلية إنسانية (وليس كملاحظة، وتأمل): مسلحة بالسببية، يحسب الإنسان ويبادر إلى فعل. الفشل يدفعه إلى

46 - معادلة جبر وشكل بياني من أشكال "الهندسة التحليلية".

تحديد السبب. هكذا في استعمال بارودة صيد... ويتابع إنجلز رافعاً لواء صناعة الإنسان، داعياً إلى توحيد علوم الطبيعة والصناعة، هذه مناظرة نموذجية.

تجربة، خبرة؟. لنقل: تجريب<sup>47</sup> أيضاً، اختبار. هذا أكثر من فكرة التجربة. الخبرة، بل نوعاً ما عكس "تجربة" الفلسفة التجريبية *empirisme* الكلاسيكية، الذي تغلب عليه فكرة الملاحظة الحسية، أهمية الحواس والنظر إلى الدنيا خارج رؤوسنا بشكل صارم ودقيق.

لكن إنجلز يرفع لواء المقولة الأكبر: العمل، الصناعة، النشاط البشري، التي تتخطى كثيراً فكرة "التجريب" بل التي هي عكسها في حيثية أساسية: العمل الإنساني (إنتاج اقتصادي، ثورة، الخ) ليس تجربة هادفة إلى التحقق من فرضية، العالم ليس مخبراً، كفاحات البشر ليست تجارب، البشر ليسوا أرناب. العمل الإنساني هدفه الحياة، ويمكن ويجب - بعد هذا الواقع - اتخاذه كتجربة وتجارب ودروس وعبر...

ولا بأس من ملاحظة أن التيار التجريبي الكبير لم يحمل لواء فكرة العلم أكثر مما حمله التيار العقلاني (ديكارت، سبينوزا، لايبنتس) بل أقل. بل لنتذكر الأطروحة الأولى من أطروحات ماركس عن فويرباخ: إن عيب المادية السابقة بما فيها مادية فويرباخ هو أنها نظرت إلى الموضوع على أنه موضوع حدس إدراك وتأمل... بينما "الجانب الفاعل" طورته وبسطته المثالية.

هذا لا يعني أن هيوم كان في "المادية السابقة". ولحسن الحظ! إنه ينسب. بحق لا بأس به. إلى "المثالية الذاتية" المستندة إلى التجربة والآلية من جون لوك، وإلى "اللأدرية". لقد سلط هيوم نقده على فكرة السببية، وعلى فكرة الماهية. مدرسياً يختصر مذهب بآن "الظواهرات أكلت الماهية"<sup>48</sup>. من جهة أخرى، كان الأسقف بركلي قد سلط نقده على المادة، أكل المادة، نفى وجود الأشياء وجوداً مستقلاً عن الإدراك، أي نفى الخارجية، الموضوعية المادية، الخ. هذا التجريبي الآخر أكد وجود الأنا كنفوس مدركة والبشر الآخرين كنفوس والله، والإدراكات بلا الأشياء: "الأشياء" ما هي إلا رموز أو إشارات من الخالق إلى مخلوقاته البشر (الذين هم محض أرواح. أذهان).

إنه المثل الأشهر للمثالية الذاتية، بدحضه لوجود المادة والأشياء بإنشائه مذهباً يدعى "اللامادية"، يعتقد بركلي أنه يقضي على الوثنية وبضعة أمور أخرى. سوف نعود إليه.

لنقل الآن إن نقد بركلي وهيوم للمادة، والماهية، أو السببية كان عملية كبيرة في اتجاه أفول الفلسفة الأوروبية الحديثة وظهور الفلسفة الكلاسيكية الألمانية التي تنطلق مع كمنط بعد هيوم بنصف قرن وتنتهي مع هيغل. في الحاضر، فعلاً، سقطت "المادية"، و"الماهية" و"السببية". طراز سابق، سقوطاً مبرماً. هذا ما لم يفهمه الماركسيون. مع أنه ثمة ما يكفي من النصوص عند أئمة الماركسية الثلاثة من أجل فهمه.

47 - أي فعل التعدي - expérimentation، فتح لحقيقة العالم بالتجريب العلمي.

48 - بصرف النظر عن المصطلحات التي هو استعمالها أو لم يستعملها.



عملية السببية هي قطع أو عزل ضروري بشكل مطلق: لا معرفة ولا علوم بدونها. العصر الحديث، العلم الطبيعي، يبسطها بشكل جيد، لكن لهذا الأمر حدوده، علاقة الكون أغنى بالأساس. رجوعاً إلى مناظرة إنجلز ضد هيوم، يمكن أن نضيف دفاعاً عن السببية وموقعها ما يلي: إن أحداً لا يقول أن صياح الديك سبب الصباح أو أن مجيء السنونو سبب الربيع، رغم التعاقب. لكن هذا يفرض في الحالتين الانتقال إلى مستو آخر، توسيع الإطار، إنشاء مجموع يتخطى الصباح وصياح الديك، ويتخطى الربيع والسنونو، أي تخطى "آ وب".

السبب يندرج في هذا المجموع الأكبر، وتحت سلطة فكرة الترابط الكلي أو التواصل الكوني. هذا الإخضاع والتخفيض لفكرة السبب حققه هيغل، ولعله بالغ. لكن بالتأكيد، الوعي الماركسي، كتب الفلسفة الماركسية، طريقة تفكير الماركسيين، ذهبت في الاتجاه المعاكس وضلت: عملياً، عادت إلى المادية الميكانيكية. هذا الضلال جانب من ضلال واحد متعدد الجوانب.

إن فكرة السببية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسعى التعليل والفهم ولا يمكن الاستغناء عنها بأي حال. وهي موقف عملي. العمل يفرض زاوية نظر. لكن الزوايا عديدة، أمام موت الجندي فلان في الحرب، ما هو السبب؟ الحرب، العوامل الاقتصادية والسياسية للحرب، توقف حركة القلب (زاوية الطبيب)، سوء الحظ (رفيقه لم يصب بالشظية)، كل هذه الزوايا صحيحة. لكنها زوايا وعي، نظر. إن إحدى نواقص فكرة السببية أنها مربوطة، في الوعي العام والطبيعي، بالزمنية التعاقبية. هنا يتبين أهمية هيوم، بصرف النظر عن أية تفاصيل. مع أن الناس لا يعتبرون صباح الديك سبباً لطلوع الشمس، ولا مجيء السنونو سبباً لقدم الربيع، إلا أنهم يميلون إلى معادلة "بعد هذا" = "بسبب هذا"، في مجالات شتى (اجتماعية، سياسية، ويومية)، وإلى نسيان وجه آخر للمفهوم: ما يمكن أن نسميه سببية مكانية وتوافقية، إحدائية أخرى للوقائع.

بين احتجاب القمر وراء الغيم وتخيم الظلام على الأرض، ثمة مسافة زمنية، وإن كان الأمر يتأني لإدراكنا. لكن العلاقة ليست في جوهرها تعاقباً زمنياً وهي علاقة سببية. قطعاً مع كونها قطعة من جملة تواصل أو ترابط ليس المكان (تعاقب) أو المكان (امتداد) سوى بعد من أبعادها. بحق نطلب من التلميذ: علل ما يلي: لماذا إذا سعدنا إلى الجبل، يبرد الجو؟ لماذا بلدان الشمال أبرد من المنطقة الاستوائية؟ لا يمكن الاستغناء عن "لماذا؟" والاستعاضة عنها بـ "كيف؟". رغم أنف الإيجابية.

في الحاصل، من هيوم إلى كونت: انتكاس، إدارة الظهر للمسألة، دفن المفهوم باسم العلمية. من هيوم إلى هيغل (عبر كنت): نقد، تصويب، توسيع، باسم الفكر النظري.<sup>49</sup>

49 - على السؤال الأول قد نحصل على جواب من نوع: لأننا نبعد عن نواة الأرض النارية - وهذا باطل - أو لأن الطقس يبرد أو لأنه جيل - وهذه توتولوجيات بلا أية قيمة، أو لأن الهواء يشتد - وهذا ليس باطلاً مطلقاً. كذلك هناك أجوبة توتولوجية بلا أية قيمة على السؤال الثاني. كذلك لا تهطل الأمطار في الصحراء الأفريقية وفي مناطق الصحارى المدارية؟ قد يأتي جواب من نوع: لأنه لا

أخيراً لنذكر أن فيزياء آينشتاين "ترد الاعتبار" لمقولة السببية، بين جملة أمور. ولنذكر أن الفيلسوف هيغل "سبق" آينشتاين، فلسفياً، على وحدة الزمان والمكان. دحض كمنط الذي أكد وثبت فصلهما. عقل هيغل لم "يتحمل" هذا الفصل. بلغة شعبية، لنقل: كلاهما - المكان والزمان - "المجال". الشاعر الفرنسي، ماليرب (ق17)، قال في بيتين رثائيين شهيرين أن العروس "عاشت ما تعيشه الورود، مجال صباح espace d'un matin". اللغة "تخلط"، الاثنين من حين إلى آخر. الفلسفة والعلم والإدراك السليم اعترضوا على هذا الخلط، وثبتوا وجمدوا. آينشتاين قلب الموقف، هذه العملية. هيغل، آينشتاين. بعيدة عن الإيجابية، بطبيعة الحال. بالأصح: هذه الفلسفة الإيجابية تدير هذا النوع من المسائل.

11- لن نسهب عن استحالة تطبيق الرياضيات على البيولوجيا. هكذا كان يبدو العلم البيولوجي في عصر كونت، و، نوعاً ما، حتى زمن قريب جداً. أما قطعية كونت المستقبلية فتبدو جزءاً طبيعياً من جملة مواقفه، من النزوع الإيجابي بعامة! في القاموس الإيجابي، "الخيال" ينتمي لباب اللاواقع، اللاعلم، اللامعرفة. إنه يذكر بالشعر، بالسحر، بالطفولة. إنه ليس العقل. ولا الذاكرة هي العقل. في قاموس الجدل، بلا ذاكرة، لا عقل، بلا خيال لا عقل. الخيال ليس من شيم كونت، تحديداً الخيال العقلي. الموضوعي الكاشف لعلاقات الواقع.

لكن من الواجب أن نذكر أن التراث الماركسي لم يوف هذا الموضوع المزج حقه: الرياضيات وتطبيقها، والخيال. إن حرب العلم السوفياتي البروليتاري (ليسنكو، 1949 مثلاً) ضد علم الوراثة الكلاسيكي (مندل. مورغان) كان - بين أمور أخرى - "مناسبة" للحرب ضد الصدفة، ضد حساب الاحتمالات، ضد أية قانونية غير ميكانيكية، غير "حتمية". والشيء الأكثر حتمية هو التقدم.

إن توسع حقل تطبيقات الرياضيات في البيولوجيا، بشكل هائل في الآونة الأخيرة، جاء بالارتباط مع الانتقال إلى مستوى جديد، أعمق، في الواقع. موضوع هذا العلم.

لنذكر أن فكرة تطبيق الرياضيات في العلوم بشكل عام تشمل كل مستويات الرياضيات، إن صح التعبير، بدءاً من أبسط مستوى (الأعداد، وأبسط المعادلات)، وقد يتخذ "أعلى" قانون فيزيائي أبسط شكل رياضي (هكذا مثلاً قانون تعادل الكتلة والقدرة، لانجفان - آينشتاين)؛ وقد تشمل دائرة انطباق نفس المعادلة الرياضية ميادين من الواقع وعلمه بالغة الاختلاف:

هكذا فالمعادلة الأسية النازلة تصح على مسيرة تبدد واهتلاك الكربون المشع وعلى مسيرة اهتلاك "الرأسمال اللغوي الأساسي" في جميع اللغات. الرأسمال المذكور يضم المفردات الأكثر أساسية، الأكثر ثباتاً وصلابة، وعددها محدود<sup>50</sup> (أنا، أنت، رجل، امرأة، شجرة، شمس، أرض الخ)

توجد أشجار. هذه الأسئلة واحتمالاتها تبين أهمية السؤال وفكرة التعليل والسبب، جدوى هذه الفكرة: تصحيح، تعميق، عزل واجب، رغم أنف حقيقة التواصل الكوني، الفعل المتبادل الخ...  
50 - ومتعارف عليه... إنها مفردات أساسية، يومية، متواترة، مرتبطة بمستويات الحياة الأكثر أساسية وقاعدية وحيوية...

في لغة من اللغات. هذه الكلمات، في لغة من اللغات، وفي جميع اللغات على حد سواء وبنفس الوتيرة، تموت (أي تتغير وتختفي لصالح بدائل عنها) هي أيضاً، لكن ببطء شديد، حسب معادلة أسية نازلة، قانونية وعامة، أي: خلال ألف سنة أولى مثلاً، يموت النصف، وخلال الألف الثانية نصف الباقي (أي الربع)، وخلال الألف الثالثة نصف الباقي (أي الثمن)، وهذا دواليك، نحو الصفر إلى ما لا نهاية! مرة أخرى!!

وهذا، أياً تكن اللغة، سواء أكانت هي اللغة الإنكليزية (أي "السكسونية . الإنكليزية") في أزمنة حديثة نسبياً أو لغة المصريين القديمة أو غيرهما، رغم الاختلاف في ظروف الزمان والمكان، الإنتاج، الغزو، التمازج، السياسة، الخ. كأن الأسباب كثيرة، متعددة، بحيث أنها تلتغي كفرق يعين فرقاً في مستوى "الرأسمال اللغوي القاعدي". هذه أيضاً فكرة حساب الاحتمالات. ليس الصفر هنا في بداية خط أرسمه ولا اللانهاية هناك في نهاية هذا الخط غير المرئية، البعيدة جداً جداً. ولنقلها بصراحة: هذا موقف لاهوتي أولاً، وميتافيزيقي ثانياً، وليس وضعياً إيجابياً، وعلمي ثالثاً. العلم الحقيقي يكشفه ويبسطه كعقل، كمعقولة كونية، ك لوغوس وك vernunft، أي ك روح - عقل، بعيداً عن الإيحاء السحري والمحسوسي لكلمة "روح" عند "الشرقيين". ثمة في الكون روح، ليس ذرة، مادة، ماهية، جوهرًا، بل هو عقل.

## الفصل الرابع

### الثورة، التقدم، التجريد

1- حسب كونت، الثورة ميتافيزيقا واستبداد، هل هي فعلاً كذلك؟ أولاً: وقبل أي شيء، نقيم الحد على الكلمات، وعلى الأشياء والعصور والمفاهيم والقضايا والرايات: ثورة، لكن أيضاً تقدم، وكل أقاربهما: اشتراكية، شيوعية، جماهير، حضارة، ثقافة، علم، إنسان، ديمقراطية، علمانية، الخ (فلسفة، لاهوت، الخ).

ثانياً: ليس من شك في أن الثورات قلما تقيم الحد على نفسها. كأن هذا قدرها، كأنه في طبيعتها. ثالثاً: الثورة الفرنسية، الثورة الروسية، الثورة الصينية، الإنكليزية (ق.17)، الخ، "كلفت" ثمناً بشرياً باهظاً. إن محاولة "ترحيل" هذه الحقيقة عملية يجب أن ترفض من جميع الزوايا: نظر، عمل، سياسة، أخلاق، هذه المحاولة تحصل بشكل متواتر. مؤرخون فرنسيون ماركسيون، في رد فعل ضد مؤرخين يمينيين، حاولوا هذه المحاولة بصدد الثورة الفرنسية. عبثاً. ليس فقط بريسو، فرنيو، دانتون، روبسبير، هيبير الخ، لافوازييه، الخ، وعدد كبير من الشخصيات التاريخية الفذة ومن صانعي الثورة ورجالها، بل أيضاً كثير كثير من الأشخاص الذين لا يحفظ التاريخ أسماءهم، وشرائخ من البشر الأغنياء والفقراء، الفلاحين والعمال والأرستقراطيين والبرجوازيين: هذا المشهد مؤلف. هكذا كان الشعور العام بعد الثورة ونابوليون. وعلى الأرجح، إنه هكذا اليوم في العديد من البلدان التي حققت ثورات. الاعتقاد بأن الامتناع عن هذا الشعور دليل على "الثورية الحقيقية" اعتقاد باطل.

وتحضرني تذكري عن لينين بعد أكتوبر (1917) بشهور<sup>51</sup>. لينين طلب دزرجنسكي. قال له: الثورة المضادة على الأبواب، حرب أهلية، أخطار، لا بد من إنشاء هيئة عامة كبيرة لمكافحة أعداء الثورة (التشيكا، أو بيتشيكا)... أريد أن تستلمها أنت. فأجابه دزرجنسكي: أنا؟ رجل ثقافة، لست في هذا الوارد، وقضيت أكثر من نصف عمري في السجن والمعتقل (سبيريا)، لا أستطيع، لا أطيع... فرد لينين: بالضبط، لا أستطيع أن أسلم زمام قضية مرعبة كهذه إلا لشخص مثلك، مثقف، رصين، لا يحب العنف، ويعرف معنى الألم والعذاب والموت... وصار... بعد بضع سنوات، يروى شهود زاروا دزرجنسكي في مكتبه أنه كان أشبه بخرقة بالية، شبح إنسان!.

يمكن أن نتابع إلى ما لا نهاية، لا خجل ولا حرج، ولا مرارة، ولا كذب أو لقلعة! من جهتي، أفضل أن نقرأ كتاب سولجنيتسين، أرخبيل الجولاج، شخصياً قرأته، قبل سنوات... في سنة 1956،

51 - أنقلها، من الذاكرة، عن كتاب فيناغورفينكل عن لينين، كتاب صغير، جميل (بالفرنسية)، كتبه "روسية بيضاء" عجوز، منصفة، مفكرة.

تابعت الأمور، استنتجت استنتاجاً محددًا. على الفور نهائياً، وأعتبر، بعد مضي نيف وربع قرب، أن التقدميين العرب والثوريين العرب والماركسيين العرب أخطأوا خطأً كبيراً في اتخاذهم موقفاً من عدم الاهتمام... الاستنتاج الذي استنتجته هو: لا كعبة، الكعبة هي الوجدان، الوعي، آخرون نقلوا كعبتهم من موسكو إلى بكين إلى كوبا وفيتنام، بل ربما إلى أديس أبابا وخمير حمر أو الخلافة، أو من الأمة إلى الطبقة، من الوحدة العربية إلى الثورة العالمية، من ثورة إلى ثورة...

لكن لا أن نفهم، أن نعقل، من أجل الأحسن، وفي هذه السبيل، يجب أن نوسع دائرة النظر. أولاً: التاريخ كله له وجه دراما، وجه مأساة، وجه قبيح، التقدم ثمنه باهظ جداً، هكذا كان دوماً، إلى اليوم. شعار جمهورية البرازيل "النظام والتقدم" مأخوذ عن كونت. البرازيل حققت تقدماً منذ إعلان الدستور الجمهوري (أواخر القرن الماضي) ومنذ ما قبل ذلك، "تقدماً كبيراً في شتى المجالات". لكن "النظام والتقدم"، أو "التقدم في نظام" ordre، ثمنه باهظ تماماً. في الحرب الأهلية الطبقية في باريس، سنة 1848 وسنة 1871، ثمة أعمال بربرية، لكن شتان ما بين معسكري العمال والبرجوازية في هذا المضمار. توجد رسالة من إرنست رينان تتطرق إلى هذا الموضوع بشكل كاشف: وحشية الطبقات الحاكمة تفوق التصور، في 1848. والأمر أفظع. كعدد وكنوعية أعمال. في 1871...

ثورة (ثورة وثورة مضادة) أو لا ثورة، التقدم ثمنه باهظ، بشتى المعاني، لاسيما بمعنى موت البشر الفوري: مدن تنشأ من العدم (بطرسبرج مثلاً)، أجنبية تشق (قناة السويس، مثلاً) مستنقعات تفتح للزراعة، وأنفاق في الجبال تفتح للقطارات، مناجم الخ الخ. هذا كله كم كلف من الحيوانات الإنسانية في كل بلد وفي كل عصر، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، في التاريخ القديم والوسيط والحديث، في المجتمعات الحضارية وفي القبائل البدائية؟ من يعتقد أن "المجتمع الشيوعي البدائي اللاتبقي" كان بلا عنف، بلا قتل الخ، مخطئ قبل ظهور الرق على أساس تقدم إنتاجية العمل وصير أخذ أسرى - عبيد عملية مربحة، كان نصيب المغلوب هو الموت. ظهور الرق ونظام الرق، حتى من هذه الزاوية الإنسانية المجردة، كان تقدماً. ومن يعتقد أن تاريخ "الشرق" أفضل من "الغرب" في التكاليف فهو أيضاً مخطئ.

ليس هناك تعادل بين الثورة والعنف. منطقة تقاطع هاتين الدائرتين محدودة. دائرة العنف والعقل هي بالدرجة الأولى دائرة الحرب. كل العصور عرفت حروباً كبيرة وصغيرة، كل المجتمعات والأنظمة حتى هذه اللحظة. بدءاً من "البداية"، من المجتمع البدائي. زهير ابن أبي سلمى يتكلم عن الحرب كشيء عادي، وفتاك... من حروب القرن الثامن عشر التقليدية إلى عصر الثورة ونابوليون (حروب الأمم والكتل الكبيرة)، الحرب تتقدم، تنمو! بدءاً من سنة 1815 وحتى سنة 1914، أوروبا قلما شهدت حروباً كبيرة داخل القارة، لكن العالم خارج أوروبا شهد حروب استعمار أوروبي متواترة وفتاكة "ثم في 1914: حرب عالمية" وفي 1939 حرب عالمية ثانية. الخسائر

البشرية؟ في الحرب العالمية الأخيرة: 20 مليون للاتحاد السوفياتي، 10 مليون لألمانيا، 6 مليون لبولونيا، 2 مليون ليوغوسلافيا، الخ الخ، من القتلى، بدون أن نذكر الصين مثلاً... أما الحرب الأهلية فنوع من أنواع الحرب، والحرب الأهلية الطبقيّة (ثورة وثورة مضادة) نوع من أنواع الحرب الأهلية أو الداخلية التي يمكن أن تكون عرقية، سلالية، دينية، طائفية، وحزبية بلا طبقات<sup>52</sup>... مرة أخرى: التاريخ كله، له وجه مأساة. منطقة تقاطع دائرة العنف ودائرة الثورة صغيرة "الحرب". ثانياً: الاستبداد والعنف والرعب، هذا كله تابع وبشكل ملحوظ للتقدم، وبالضبط للتقدم التكنولوجي والصناعي والعلمي، أي لكل هذا الذي يرفع "رجال القرن التاسع عشر" لواءه "بلا قياس". جزئياً، التاريخ الجاري، الآني، كان بيرهم. في حاصل الجمع، أخطأوا خطأً غير قليل. و1914 أعلنت خطأهم. في قصيدة عنوانها "نشيد إلى الليل" الشاعر الكاثوليكي شارل بيغي Péguy يطلق صرخة تحذير للإنسان البروميثي، وذلك قبل قنبلة هيروشيما بنيف وثلاثين عاماً... ليست الثورة وحدها، بل التقدم كله له وجه مرعب. لهذا، يحتاج "تاريخ الجنس البشري"، الإنسان العاقل، إلى انعطاف عام، أكبر من كل الثورات المعلومة.

ثالثاً: في التاريخ، الإنسان محكوم. الثورة ليست اختياراً حراً. عنصر الاختيار والحرية محدود وتابع للضرورة. يمكن أن نقول أن الثورة الفرنسية، الأمريكية، الإنكليزية، الهولندية، الخ، الروسية، الصينية الفيتنامية الخ. الثورات عموماً، محتومة. وذلك بأكثر من معنى: ثمة قوانين، شروط، أسباب الخ لهذه الانفجارات، الانتفاضات. الثورات. هذه ظاهرة تاريخية، طبيعية. بل ومن الممكن، على سبيل المشابهة بالأقل، أن نقول، هذه ظاهرة طبيعية بمعنى أن لها ما يشبهها في الطبيعة بحصر المعنى، أي الطبيعة اللإنسانية، من الممكن أن نقول أن هذه "الانقطاعات في التواصل" لها موازيتها في الرياضيات. رجوعاً إلى التاريخ، لنقل أن لها سابقات ولها عاقبات أيضاً. الثورات الحقيقية أعقبها تقدم كبير، كسرت قيوداً على التقدم، هذا سبب، وغاية، ونتيجة، في مفهوم الثورة؛ أي أنه دائرة مغلقة، مفهومية، في جملة التاريخ الكونية.

وما تملكه البشرية اليوم، ولم تكن تملكه من قبل هو إمكان تغيير هذا التاريخ. الطبيعة أو هذا "التاريخ الطبيعي" نحو الأفضل. وهذا ما يتطلب الوعي، المعرفة الصاحية، بعيداً عن السقوط في الطوباوية، في الفردوسية، ومع تهمين الطوباوية والحلم البشري، والاعتراف الواعي بأن الثوري، يحمل، بشكل طبيعي وحتمي، هذا النفس الفردوسي أو الطوباوي، الخلاصي أو المهدي الخ، بالتالي فهو معرض للسقوط بوعيه في هذا النفس. يبدو لي أن الماركسية البشرية، قادة وأحزاباً، ارتكبت بالتلازم الخطأين معاً: مع أنها ولأنها لم تعترف بنفسها الخلاصي. المسيحاني الخ، فقد سقطت في وتحت هذا النفس الطوباوي. أما الأداة النظرية، فسواء كانت مجموعاً طويلاً من فلسفة

52 - بالأصح قبل أن نتكلم عن "أنواع" يجب ألا نتكلم عن جوانب الحرب. في الواقع، الحرب لها أكثر من جانب واحد.

مادية جدلية وعلمية تاريخية وعلم اقتصاد ماركسي لينيني، أو مذهباً علمياً يتصور نفسه أكثر تطوراً ويتوخى المعرفة من أحدث العلوم، أو كانت بضعة قوانين - شعارات لثوار مفتونين بالعمل والممارسة وغير مستقضين لفلسفة ومعرفة وعلم وعلوم ويتصدون لقيادة جمهور أو جماهير يسحقها البؤس وينفد صبرها الفقر والامتهان، لا فرق في ذلك، إن هذه الأداة النظرية ليست سوى آلة لمعالجة الكون والبشر في الاتجاه الطوباوي، التي تتحط أيضاً في حالات معلومة إلى ارتزاق. هذه السيرورة الأخيرة ليست محض قضية أخلاق. إنها قضية نظرية، قضية في نظرية المعرفة - المنطق الجدلي. بمفردات كمنظرة الراهنة تماماً: هذا "العقل العملي" (=الأخلاق) ليس بعيداً أو غريباً عن "العقل المحض" (= الرأس النظري)، و... العكس بالعكس.

2- لكن مسألة الثورة، حسب كونت وآخرين كثيرين، تفرض علينا أن ننظر إليها من زاوية أخرى، من زاوية ما أدعوه تقاطع الفلسفة النظرية المحضة والتاريخ. في الحاصل، ما ينطق به كونت وآخرون كثيرون في عصره وفي عصور مختلفة، هناك وهنا، هو: الثورة هي استبداد وميتافيزيقية، أو هي استبداد وميتافيزيقية وتجريد. هذا المنطق يمكن (ويجب) أن يوصف بأنه المنطق الإيجابي - الليبرالي، أو الوضعوي - الليبرالي، أو التقدمي العلمي الليبرالي.

وأريد أن نسقط كل شحنة سلبية، لكن أيضاً إيجابية، عن الكلمات، بما هي كلمات. يمكن أن نستغني عن وضع مزدوجات حول هذه الكلمة أو تلك. فالكلمات جميعاً هي بين مزدوجات، هكذا يجب أن تكون مبدئياً في الرأس: الكلمات ليست أشياء، وليست آلهة، خير وشر، ولا يتحدد معناها وقصدها واتجاهها إلى في السياق، سياق الكلام. المزدوجات ليست مبررة إلا ضمن سياق محدد، دفعاً لالتباس ممكن، محدد هو أيضاً. وكذلك التاريخ. الليبرالية خير كبير بالمقارنة مع ما سبقها أو ما دونها. كذلك الرأسمالية (على حد قول لينين بعد أكتوبر، في وعن روسيا السوفياتية المتأخرة، الوسطوية، المتناثرة، الفلاحية، الجاهلة، "الآسيوية"). كذلك الاقطاعية، كذلك الرق. كذلك البربرية بالمقارنة مع الهمجية، في ثلاثية همجية . بربرية . مدنية عند فورييه. لكن البربرية موجودة قائمة وراهنة وفعالية في القرن العشرين من سنة 1900 حتى سنة 1982 عالمياً، كونياً (حربان عالميتان، خطر حرب ثالثة، حرب فييتنام، هتلر، الخ)... تطور أوروبا من الحكم المطلق و"النظام القديم" إلى الليبرالية، من السحرية و"الدين" إلى العلم والتقنية، الخ، تقدم إيجابي كبير. وكذلك تطور من الليبرالية إلى الديمقراطية. بفضل نضالات الطبقة العاملة وحركة العمال بالدرجة الأولى، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

بتعبير آخر، إن ما نحتاج إليه إزاء وصف الثورة بثالوث الميتافيزيقية والتجريد والاستبداد هو الفهم، قبل أي نقد. الفهم هنا، الفهم بمعنى verstand وvernunft (عقل)، لكن بالأصح الفهم بالمعنى العادي الأبسط والأقرب، أهم عدة مرات من "النقد". وما ينبغي فهمه هو تحديد فكرة هذا

الثالث، أي هذا الترابط بين الثلاثة. ولعل الفهم سيفرض علينا الخيار بين اثنين لا ثالث لهما، منطقياً: إما الجدل - و- الديمقراطية وإما الإيجابية - و- الليبرالية. كما قلت: نحن هنا - الثورة؛ والثورة الفرنسية مثلاً - عند نقطة تقاطع نظرية المعرفة والتاريخ - العمل الإنساني!

إن الكثير من التقدميين، هنا وهناك، يعتقدون أن أوروبا قد اجتازت مرحلة الثورة والثورات، إنها تحل أزمتها وأزماتها مع سير الأزمة والأزمات، (aufur et à mesure)، كلما كانت وبقية ما يكون عندها أزمة وأزمات)، تقدماً، بالتقدم والعقل الخ، وبمواجهة المسائل (بدلاً من نفلقتها)، في مناخ الديمقراطية والحريات، وأنها تخلصت من المطلق والمطلقات.

أترك مؤقتاً هذه الصيغة الأخيرة: يبدو لي أن هناك، في الروح والعقل، فرقاً بين المطلق (مفرد) والمطلقات (جمع)، لعل أوروبا حالياً لا تعيه. لكن مزية هذه الصيغة، وهذه الحالة، أنها تعبر عن حقيقة الثالث كوحدة، أنها تبين راهنية المسألة التي نحن بصددتها. "دين البشرية": كونت له مطلقه الذي هو مطلق من المطلقات الممكنة نظرياً، والذي يمكن أن يتجرد من كينونته وأن يتبخر في الرأس وفي الواقع. يكون الرأس النظري، الذي رفض البدء من المجرّد - من أكبر المجرّدات - قد انتهى بذلك وعبر مسيرة تجريبية - علموية، دوغمائية إلى تجريد، إلى تبخير الواقع في مجرّدات أثرية محببة من نوع "دين البشرية" أو قانون "صراع الطبقات" أو "الحالة العلمية" أو "التقدم" أو "الثورة"، الخ، لا فرق في ذلك، المنطق، الجدل، مسيرة كتاب المنطق (هيغل)، مسيرة منطق رأس المال (ماركس)، عكس المسيرة الأنفة. إنها صعود إلى الواقع بوصفه جملة عيانية.

إذاً، قبل أي نقد لموقف كونت وآخرين في الغرب، أريد أن أقول أنهم على حق: كلمة ثورة "تستحضر" فوراً فكرة التجريد أو المجرّد، وبالتالي أيضاً فكرة "الميتافيزيقية" (غيبية، ماورائية، الخ) وفكرة "الاستبداد" وغيرها. حقيقة "الاستحضار"، الحقيقة التي يعبر عنها، حقيقة ومسألة "الميتافيزيقية" و"الاستبداد" هذا ما يجب جلاؤه.

قبل ذلك لا بد من الوقوف عند قضية التجريد وقضية الثورة والتجريد.

إن كره المجرّد والتجريد أحد أبرز كرهات الفكر العربي، بوجه عام وعلى اختلاف مدارسه، في مختلف مواضيعه وشواغله، وفي مختلف ندوات بيروت 1980-1982: ثمة استثناءات طبعاً، ثمة ردود حادة، وواعية لهذا الداء، وثمة ضائعون مستغربون ورافضون لهذا المرض. أما حاملوه فإنهم حين يقولون، من علياء العلم الواقعي الوضعاني (والبالغ الاختلاط والغني بأخطائه البسيطة!)، حين يقولون: "هذا تجريد!"، فكأنهم قذفوا بصخرة على رأس المتهم بالتجريد. إذا تذكرنا - والأمثلة كثيرة - أن نفس العالمين يمكن أن يقولوا بنفس الترفع الحربي (هذا وصف!)، أدركنا المفارقة، أدركنا الداء الواحد في وجهيه أو في وجوهه: كره التجريد، كره الوصف، وحب "القانون" و"المعرفة العلمية" (عدا عن "الجوهر" و"الجوهر").



مسألة مصطلحات؟ . هكذا قيل (بحق). يجب "تعريف المصطلحات"، هكذا قال آخرون (بحق أيضاً).

لكن أولاً: كلا! مسألة قاموس، بالمفرد، مسألة *vocabulaire* (مصطلحات، مفردات، لكن) بالمفرد! بالتالي، مسألة لغة (لا أقصد: لغة عربية، بل لغة وحسب)، إذن مسألة فكر، عقل، منطق. هذا الباطل القاموسي واحد. هو باطل بالإيجابية العلمية، باطل "فرنسا القرن التاسع عشر" الذي يتخطاها في كل اتجاهات الزمان والمكان.

ما التجريد؟ ما القانون؟ ما الكلمة؟ ما الجوهر؟ إنهم أولاً شيء واحد. الجاذبية قانون وكلمة وتجريد وجوهر. كذلك النسبية. لكن كذلك أيضاً كذلك الكلمات "الدنيا" جميعاً. إذا كنا معتادين، في الربوع اللغوي الأنف، على إعلاء كلمتين منه (القانون، جوهر) وإخفاض كلمتين (تجريد، كلمة)، فهذه العدة باطلة بالتمام. ويجب أن نغير الرباعي، أن نجعله خاموساً، أو سادوساً، الخ، أي أن نضيف: مفهوم، شكل، حد، جانب، كيف (صفة)، تحديد (تعيين)، الخ. الأسماء سمات (كيفيات). وكل الكلمات أسماء (أي تسميات). وكل الأسماء (الكلمات) ظروف كيف؟ أو نحوها، منح، اتجاهات... هذا في الموقع الأول لنظرية المعرفة. كل موقع آخر هو، بالمنطق، موقع تالٍ.

الوصف - وصف الجملة العيانية، الموضوعية، بعمقها وترابطها وحياتها وذاتها - هو ذروة المعرفة، وبشكل خاص المعرفة النظرية المتجهة نحو إرشاد العمل.

3- كل الكلمات هي مجردات، أو لنقل هي رموز مادية محسوسة (مسموعة، مرئية كتابية) عن مفاهيم عامة، عن كليات. "في اللغة لا يوجد سوى العام، الكلي، (لينين. وراء فويرباخ وهيغل وجيش من الفلاسفة عبر العصور). هذه النقطة غائبة من منطق الوضعانية، من الماركسية بعد لينين. وعلى غيابها، هي وتوابعها وألوانها، يجلد لينين بليخانوف المفكر الماركسي الكبير ومعلم جميع الماركسيين الروس: بليخانوف كتب كثيراً في الفلسفة، لكن لم يكتب حرفاً عن المنطق كعلم

...

عند أغست كونت، في اللوحة المختصرة التي نقلناها عن مذهبه الفلسفي، المجرّد ورد كصفة في صيغة "القوى المجردة"، تعبير الحالة الميتافيزيقية الماورائية القريبة من الحالة اللاهوتية والبعيدة عن الحالة الإيجابية. لكن اللعنة صابّة على فكرة التجريد والمجرّد، بما يتخطى صيغة "القوى المجردة".

أوغست كونت، بطبيعة الحال، بوصفه إنساناً ناطقاً، يستخدم المجرّدات. والمفروض أنه يعي ذلك. هذا أولاً. وثانياً، إنه، بوصفه رجل يستخدم المجرّدات، المفاهيم، العموميات، التي تعمل بها هذه العلوم، ويؤيد هذا الاستخدام ويثمنه. تصنيف العلوم الكونتي يسير على خط تناقص العمومية والبساطة. وهذا موقف بسيط وعظيم في دلالاته: الأعم هو الأبسط، والأوسع في الشمول هو الأفقر في التضمين. هذا منطق أرسطوي خالد، منطق المفاهيم. الحدود. المفاهيم تتدرج، الحد حسن س

(شخص معين باسمه) أصغر من الحد عربي، والحد عربي أصغر من الحد إنسان، والحد إنسان أصغر من الحد حيوان لبون، والحد حيوان لبون أصغر من الحد حيوان، والذي هو أصغر من الحد كائن حي، الذي هو أصغر من الحد كائن أو من الحد جسم: هذا في الشمول extension (اتساع). في التضمن، التسلسل هو بالعكس: حسن س، هو الأكبر، والحد كائن أو جسم هو الأصغر. التضمن هو مجموع الصفات أو الكيفيات أو الحدّات التي تكون الحد. الشمول الاتساعي هو مجموع الأفراد الذين ينتسبون للحد، أو يدخلون في دائرته الحسية (نرسمها على الورقة) المجردة. في مسيرة المنطق الرامية إلى معرفة جملة كائن واقعي، كلمة كائن فقيرة جداً في البداية (إنها تجريد فارغ، فيما عدا كونها تفصح عن هذا الكائن بوصفه كائناً خارج رأسي، موضوعياً، مستقلاً عن عملية المعرفة)، وغنية مليئة في النهاية والمآل، متطابقة مع الكائن الحقيقي الخارجي بقدر ما استطعت أن أتقدم.

هذا - حسب أجزائه - يقربنا من أرسطو ومن هيغل ومن منطق العصر الوسيط والعصر الحديث، رغم كل الفروق، ويبعدنا عن هموم العصر الإيجابي ومعظم "الفلسفة الماركسية". لكن كونت (والعصر الإيجابي) لا يرفض المفاهيم، ويؤيد مبدأ التجريد. فماذا إذاً

- إنه يرفض بعض المفاهيم، بعض المجردات، بعض الكليات. أفضل من ذلك إنه يرفض المفاهيم الأكبر، أي الأكثر تجريداً وعمومية. ويرفضها بموجب روح المذهب. ثمة خط حدود لعلمية التجريد المجدية، العلمية. تجاوز هذا الخط هو ميتافيزيقية. تجاوز هذا الخط نحو الأعلى - تجريداً - هو الابتعاد عن الواقع الذي هو هنا تحت. مع أخذنا أعلى وأدنى، فوق وتحت، بالمعنى الحسي، المباشر، العادي. هذه طريقة تفكير تعتقد نفسها عكس أفلاطون، وهي عكسه فعلاً بمعنى من المعاني. لكن الجدل عكس أفلاطون بمعنى آخر، "في اتجاه آخر". هذا ما سوف نعود إليه: هيغل، وماركس وإنجلز ولينين. طريقة التفكير التي نحن بصددنا طريقة عادية، شائعة، عامة: الإنسان العادي (أي كلنا) مع الواقع هنا تحت: هكذا الحياة، الدنيا. بل هذا جيد، في حدوده. لكن هذه الطريقة تتخطى، فتنتظرن وتتمفهم، وتصير مذهباً فلسفياً. علمياً، سياسياً، في عملية ترفيع (مع تحويل وتحويلات) باطلة بالأساس.

عملية التجريد يجب أن تبقى في "المعقول" وهذا في المعرفة والعلوم هذه الـ "لا" للتجريد الأكبر، هي لا لعام أكبر، لكلي ذي مدى أشمل، لهوية أعم، منطق الهوية (أ هو ب، جان هو إنسان، أوراق الشجرة هي خضراء، الخاص هو عام.. لينين) يقال له عند نقطة ما أو حد ما: قف! العالم، بدلاً من أن يكون هوية ورفقاً إلى ما لا نهاية، يصير عالم جواهر ماهوية أو أصناف.

وهذا واضح في موقف لأوغست كونت بصدد علم الفيزياء، في حكم شهير له على الموضوعات . ميادين الفيزياء: إن الكهرباء والمغناطيس والضوء والصوت<sup>53</sup> هنّ "des réalités sui generis"، أي واقعيات نسيج ذواتهن، أي إن كلا منهن واقع حقيقي قائم بذاته، من جنس ذاته. وهكذا سيبقى. التخطي عبث ميتافيزيقي، ما ورائي. وإذا أخذنا العبارة الفرنسية اللاتينية الأنفة حرفياً، ربما يجب أن نقول، بلغة منطق الأقدمين، إن التخطي الممنوع هو التخطي من النوع إلى الجنس، أو من النوع الأخص إلى النوع الأعم. بتعبير آخر . وكما يقول أوغست كونت نفسه في الشاهد المدرسي . ليس ثمة شيء مشترك بين الكهرباء والصوت الخ. فولكويه (وهو كتاب مدرسي ممتاز<sup>54</sup>) يبدي استغرابه أمام هذه الدوغمائية والاستبدادية غير المعهودة (حسب رأيه) في الفلسفة الإيجابية. من كتاب جان فال، بانوراما الفلسفة الفرنسية، يبدو لي أن هذه الدوغمائية والاستبدادية معهودة تماماً. لعلنا أمام شيئين مختلفين: مسألة الدوغمائية والسماحة ليست مسألة حب البشر والعلوم والتقدم، بل هي مسألة المنطق.

عالم الفيزياء عالم ماهيات - كذلك العالم التاريخي السياسي - "كره المجرّد" لحن مهم في التاريخ الأوروبي الغربي، حمله بشكل خاص وبسطه، الإنكليزي (أو الأيرلندي الإنكليزي) إدموند برك Burke، ناقد الثورة الفرنسية الأشهر والمتنبئ بعهد الإرهاب، منذ سنة 1790، وهو من أهم رجال الفكر السياسي في تاريخ الغرب. لننظر إلى القضية عن كثب.

4- تاريخ أوروبا الحديث وفكرها هو في جانب من أهم جوانبه تاريخ مفاهيم - مقولات كبيرة - وحين أقول "تاريخ أوروبا وفكرها" أقصد الواقع والفكر بأن.

المفاهيم (الصحيحة، الجدية) كيفات الواقع، قبض على أشكاله. المقولات علاقات كينونية، إذن تاريخية. العمل (الشغل) قديم "قدم الطوفان" (ماركس)، قدم الإنسان. لكنه ينتقل إلى مستوى الواقعية الفعلية كشغل عام، كمفهوم مجرد، كلي، أي كشغل وحسب (وليس كشغل زراعي، شغل صناعي، شغل كذا، أو كذا) في المجتمع البرجوازي الحديث، حيث تتعدى وتنوع الأعمال، مع حرية الانتقال من عمل إلى آخر، من مهنة إلى أخرى. عندئذ تبرز وتطفو مقولة الشغل في رأس آدم سميث وغيره وفي رأس الواقع! هذا مسار تشكل طويل، معق، متناقض الخ، في الواقع وفي الفكر. إنه تاريخ. تاريخ جملة الواقع، والفكر جزء من هذه الجملة، تابع وفاعل.

الفيزيوقراطيون كانوا ثورة . ضربوا الماركنتيلية. الماركنتيلية في شكلها الأول، الأساسي، الإسباني، كانت وثنية، كانت مذهب عبادة المعدن الثمين، الفضة والذهب. الفضة هي المال argent بالفرنسية<sup>55</sup>. الثروة هي الذهب والفضة، كمية هذه المادة. كلمة "مادة"، في هذا التداول

53 - أنقله، من الذاكرة، عن كتاب مدرسي: فولكويه، المنطق (بالفرنسية)، لصف البكالوريا. إبدأ بدون تدقيق!.

54 - يوجد من الجدول والعلم الحق، في هذه الكتب المدرسية الفرنسية للفلسفة (كوفيليه، فولكويه) أو في كتب التاريخ المدرسية الفرنسية أو السوفياتية، أكثر وأفضل مما يوجد في كثير من كتب "الفلسفة الماركسية اللينينية" ومن كتب "علم الاقتصاد الماركسي".

55 - كلمة "مال" العربية (ما له، ما له) عظيمة في هذه الحثيثة الجدلية. يمكن أن نقول ضد الوثنية، ضد الماركنتيلية، ضد "المادة".

الشعبي العربي، ممتازة: مجرد . محسوس، رمز، كم، عدد. بإيحاء اللغة الفرنسية: الثروة تصير مال . مادة argent. وإيحاء اللغة العربية: المال . مالي، خاصتي، خيري، يصير المال . المادة. وتأتي "ثورة الأسعار"، التضخم.

فلان من الناس (في أوروبا الغربية، أو في استنبول والمشرق، ق16) يملك كمية من الذهب. هذا الذهب يزداد ويكبر، كمادة، حجم، كتلة، وزن (مختلف صفات المادة)، كم وعدد، كان يملك كيلوغراماً، صار يملك كيلو غرامين. لكنه يتقلص ك واقع، فعلية، روح، علاقة، عقل. أيهما الواقع؟ ذلك أم هذا؟ قد نجيب: كلاهما. وهذا الجواب ليس باطلاً. إنه تعبير آخر عن فكرة "الوجود" العادية، المباشرة، الخ. لكن، في الحاصل، إذا كنا في صدد فكرة واقع هو مجتمع، تاريخ، حياة بشرية، تقدم، وطن، الخ، يجب أن نحزم أمرنا: الواقع ليس ذلك، بل هذا، وهذا يأخذ ذلك في جملته، يطوعه ويخضعه. يجب الاعتراف بأن كلمة "مادة" تضخمت وانتفخت في القاموس "الماركسي" بدون أي مبرر حقيقي، وخفضت تخفيضاً مرعباً أفكار من نوع: واقع، طبيعة، كائن، الخ.

المركانتيلية مذهب واقع وفكر وروح. إسباني . برتغالي . عثماني الخ. وعام. عواقبه معلومة. "المركانتيلية" تعني، حرفياً، "التجارة". لكن "التجارة" لها أكثر من معنى. لها معنيان رئيسيان، في الروح والفكر والتاريخ، متفارقان: (1) المركانتيلية. (2) التعامل، التعامل بين البشر الكلمة العربية الآتية من العمل، التي هي امتداد لفكرة العمل والتي هي أساس كل مجتمع مدني: عمل، تقسيم عمل، تعدد وتكثر الأعمال، تعاون وتعاون مركب، وقيمة، ومساواة، وكليات كبيرة، في اللغة الفرنسية، هكذا كلمة commerce (تجارة)، فهي تعني أيضاً: تجارة بين البشر، تعامل بين البشر. وهي أساس الموضوعية، الاعتراف بالآخر، بالموضوع كذات، الخ...

في الغرب، تطورت المركانتيلية (ق17، 18)، صارت مذهب تجارة وصناعة من أجل التجارة الخارجية والإثراء المركانتيلي (الذهب والفضة)، كومبانيات (شركات كبرى) من أجل بلاد الهند الشرقية والغربية (أميركا)، "اشتراكية" دول ملوك وأرستقراطية وتجار ومقاولين، (مع "شيوعية دول" كنظام لأندونيسيا الهولندية المخضعة لاستثمار دقيق كمجتمع متساو)<sup>56</sup>، أنظمة حمايات وإغلاقات قومية...

لكن كان هناك نفس آخر، بالعكس. وزير ملك فرنسا هنري الرابع (حوالي سنة 1600) له قول ماثور: "الفلح والرعي هما الثديان اللذان يغذيان فرنسا، هما مناجم ذهب البيرو الحقيقية"... قبل الفيزيوقراطيين وآدم سميث، تصدر عشرات الكتب من نوع: "فوائد زراعة القمح". ماركس الشاب قرأها<sup>57</sup>.

56 - انظر ماركس وإنجلز، نصوص عن الاستعمار، دار التقدم، (موسكو).

57 - انظر مثلاً أوغست كورنو، ماركس وإنجلز، دار الحقيقة. أو ماركس، مخطوطات 1844.

الفيزيوقراطيون (ق18) يسدون ضربة قاضية على المذهب الاقتصادي الماركنتيلي. يكتشفون مقولة العمل (الشغل) لكن كعمل زراعي، كعمل وطبيعة، يرفعون لواء الحرية الاقتصادية، حرية العمل والتجارة.

بعدهم آدم سميث (ق18) يدفع التجريد إلى أقصاه: العمل (الشغل، Arbeit, travail, savor)، مجرداً عن موضوعات العمل (إذاً عن "أنواعه": زراعي، صناعي، تجاري، الخ، الخ)، العمل كمحض فاعلية ذاتية للإنسان، غير الموجود بتاتاً في هذا الشكل وغير الممكن وجوده، والذي هو كَلِّي الفعلية الصحيح عن كل الأعمال المفردة مروراً بأنواع الأعمال ومن فوق ظهرها أيضاً إن صح التعبير، العمل كمنطق في الكينونة البشرية، ومعه التعامل، المساواة، فكرة القيمة المحض أي القيمة التبادلية، علاقة مساواة التبادل. وماركس يعيب على آدم سميث كونه، بين حين وآخر، يعود ويسقط في منظومة الفيزيوقراطيين، التي لم تدفع التجريد إلى هذا المدى<sup>58</sup>... آدم سميث (مع ريكاردو وبعده) أحد المصادر الكلاسيكية الثلاثة للماركسية. لكنه أيضاً مصدر ومادة ل هيغل وفلسفته. إنكلترتة تجريبية، كما هو معلوم، لكنها استطاعت عند هذا الحد الذي هو المجتمع البرجوازي ومعرفته. أن تعطي نوعاً من هيغل للاقتصاد السياسي.

ماركس الشاب<sup>59</sup>، وراء انجلز الشاب، يصف آدم سميث بأنه لوثر الاقتصاد السياسي. مثلما لوثر ضرب الوثنية في الدين، ذوّت وجوّن الدين، كذلك فعل آدم سميث: ذوّت الثروة. الجوانية والبرانية (الخارجية) ليستا شيئين، مادتين، بل هما مفهومان فلسفيان. الجوانية أساس للكلية. الكونية. إنسان الثورة النيوليتية تجرد وجرّد، توجّد واستوعى. الثورة اللوثرية لم تكن - كخط منطقي تاريخي - "انصرافاً عن الدنيا"، بل بالضبط شرطاً ومقدمة لفتح الدنيا بالعقل والعمل: الشعوب البروتستانتية شاهد...

5- "العمل" أولى الكليات التي يجب أن تبرز عند التكلم عن أوروبا الحديثة. فهي الأساس والمحور للمقولات الأخرى. مفهوم العمل يتضمن الوعي، الفكر، الوجدان، الذاتية، الأخلاق (كوجدان وكتعامل)، التنظيم، التقنية، الخ. مفهوم القيمة مفهوم مساواة وتسوية، مسح للفروق، تجريد.

مفاهيم الإنسان، المواطن، ثانويات الوطن والمواطن، الفرد والمجتمع، الكليات جميعاً، مع كلية العمل، هي جملة تاريخ أوروبا التناقضي، المتنوع الصراعات. في مسيرة الفكر النظري، يمكن القول إن مقولة "العمل" جاءت متأخرة. العالم البرجوازي ليس عالم العمال، هذا اختلاف كبير في المناخ الروحي العام. ومع ذلك، هذا العالم البرجوازي، في الحيثية المذكورة، ليس ... عالم العصور الوسطى: فروسية، شاعرية، حرب، أرستقراطية، أصالة وعراقة ودم أزرق وزعم فاتح فرانكي

58 - ماركس، المدخل، الفصل الثالث. أو مجلة الواقع، العدد الرابع.  
59 - مخطوطات 1844 الاقتصادية - الفلسفية.

(إفنجي) فوق أمة الفرنسيين، شعب العوام. والأب سيبيس الناطق بلسان هذه "الطبقة الثالثة" يرد على هؤلاء النبلاء: أنتم سليلو الفرنك؟ إذن سنعيدكم إلى غابات فرانكونيا (في ألمانيا). صدر كتابه<sup>60</sup> مع تباشير الثورة (1789). بعد قليل كانت الهجرة "إلى فرانكونيا" وسواها. قبلها، في سنة 1790، صدر كتاب الإنكليزي برك "تأملات عن ثورة فرنسا وبلاد برابان".

إنه أول ارتداد برجوازي على الثورة البرجوازية، وعلى شطر هام في كل التطور السابق. برك برجوازي ليبرالي تقدمي، معارض لحزب المحافظة والمحافظين، واشتهر بموقفه الإيجابي من الثورة الأميركية (حرب الاستقلال)، لكن له موقف آخر من الثورة الفرنسية. ينذر بأن الإرهاب قادم، بأن الرؤوس ستسقط، والدماء ستسيل. يمجّد الثورة الإنكليزية الثانية (السلمية)، يطوي، بالتّي هي أحسن، الثورة الإنكليزية الأولى (الدامية. كرامويل cramwell) التي هي ثاني الثورات البرجوازية في الغرب (منتصف ق17) بعد الثورة الهولندية، يدجن الفكر الإنكليزي السياسي البرجوازي الصاعد في منظور برجوازي جديد، مترجع عن جون لوك (ق17) الذي كان قد أيد مبدأ اللجوء إلى الثورة، "الاستنجد بالسماء!" (على حد تعبير لوك"، حين لا تبقى حيلة أخرى لشعب محكوم! بالمقابل، يجابه برك أفكار "عصر الأنوار"، "الفلاسفة" (أي فولتير، روسو، ديدور، الخ، الخ) ويخوض ضد هذه الأفكار حرباً لا هوادة فيها: إنها مجردات، ماسحة، مرعبة وفتاكة، والويل للفرنسيين.

لنقل أولاً بأول إن الاختمار الفكري والروحي والنفسي، الطويل، الذي يصل إلى 1789 وما بعدها، لم يكن محصوراً في فرنسا. أوروبا الغربية حيز تاريخي واضح منذ قرون، منذ منتصف وأواخر العصور الوسطى. الانقسام بين شمال بروتستانتية وجنوب كاثوليكية لم يقطع التواصل لحظة واحدة. ليس فقط من البداية تتحالف فرنسا الملكية الكاثوليكية مع دول بروتستانتية ومع الباب العالي ضد إسبانيا والنمسا الكاثوليكية بلا حرج. بل أيضاً الصلة الروحية والفكرية في دائرة تجمع فرنسا مع هولندا وإنكلترا وألمانيا تظل أكبر من صلاتها بإسبانيا... الأسقف بوسويه يتناظر مع الفيلسوف لايبنتس. ديكارت يهاجر إلى هولندا الحرة... أخيراً، في القرن الثامن عشر، تأتي "الأفكار الإنكليزية" إلى فرنسا عبر البحر الصغير، "يحملها" مونتسكيو وفولتير وآخرون لا حصر لهم. قبل ذلك، فكرة الحق الطبيعي الجبارة يخترعها هولندي وألماني: غروتوس وألتوسوس. مصدرها أقدم... هذا العالم موصول، معقول. ليس وارداً أن نرسم هنا لوحة هذه المواصلات. إنها ليست خطأ مستقيماً.

فكرة الحق الطبيعي، أو الثورة الفرنسية، أو إعلانات حقوق الإنسان (بعض الولايات المتحدة الأمريكية، ثم فرنسا 1789)، أو "عملية آدم سميث"، أو "عملية منطوق هيغل"، (وماركس على الخطين)، أو أنا أفكر (ديكارت)، أو "أنا" فيشته (= مذهب مثالية ذاتية، لكن غير مذهب لا

60 - ما هية الطبقة الثالثة؟ انظر جان جاك شفالية، مرجع مذكور.

مادية بركلي)، "الصفحة البيضاء" (tabula rasa، جون لوك)، الفلسفة النقدية (كنط)، "العقد الاجتماعي" (روسو)، هذه جميعاً، على اختلاف ميادينها واتجاهاتها، تنتمي لشيء واحد: التجريد، المسح المطلق، كمنطق وكمبدأ.

والذي يرتد عليه برك هو هذا المبدأ.

منطقه: هذا تجريد، هذا ليس الواقع، هذا ليس التاريخ.

تقولون: العقل، الطبيعة، التجربة؟ . هذا كله ضدكم!

للنظر إلى الشيء من أقرب، هذا الشيء الذي هو المسح.

1- ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا كائن". أنا أشك في معطيات الحواس، في وجود كل هذه الأشياء والأجسام: حواسي تخدعني أحياناً، لعلها تخدعني دائماً. ثم، خصوصاً: الحواس ليست برهاناً؛ أشك أيضاً في كل ما قاله السابقون، لكن أيضاً الحاضرون والقادمون: إسقاط "حجة السلطة"، argument d'autorité، السلطة ليست حجة، أرسطو أو الكنسية أو الجامعة والعلوم، هذا ليس حجة. . ديكارت يطعن "السلفية"، لكن أيضاً بالضبط وبالجزر كل سلطة خارجية على الوجدان وعلى الفكر؛ أشك في وجودي كجسم، وكنفس؛ أشك في وجود الله؛ شكل في كل شيء، في كل فكر ومعرفة، في كل معطى الخ؛ لكن هناك شيء لا أشك فيه ألا وهو أنني أشك، إذاً أنني أفكر. "أفكر" هذا يقيني الأول. أنا أفكر إذاً أنا كائن je suis. كائن كنفس مفكرة (ثم، هذه النفس لها خالق: الله. هذا الخالق خلق أيضاً بشراً آخرين، وأشياء وعالمًا). هذه المحاكمة كلها (السابقة لما بين القوسين) يمكن أيضاً اعتبارها حدساً. شك . فكر . كينونة . أنا. المبدأ مسح كبير، صفحة بيضاء.

2- جون لوك؛ رائد التجربة، المعارض لديكارت رائد "العقلانية"، وصاحب النظرية المعروفة بـ "الصفحة البيضاء": المعرفة كلها مصدرها الحواس، الخبرة أو التجربة. أي: ليس عندي أو عند الإنسان عقل أو ذهن حامل فكر أو مُثل أو مبادئ قبلية (ضد ديكارت) سابقة للخبرة؛ كل الفكر والمبادئ مصدرها الحواس والملاحظة الخ.

3- فلسفة ما قبل الثورة الفرنسية تنتمي للخطين الأنفين: صفحة بيضاء بالمعنيين، كمبدأ.

4- وكنط مبدؤه ومنطقه: الطعن بالمعرفة، إعادة طرح مسألة المعرفة.

كنط يوحد معطيات التيارين السابقين العقلانية والتجريبية، يدشن طريق "الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" يحصر المعنى، أي مسيرة التجدد والتحديث الواصلة إلى هيغل.

4- روسو، العقد الاجتماعي. روسو وأمثاله، لم يعطونا آلية تاريخ، رواية تاريخ نشوء المجتمعات البشرية. أعطونا منطق حقوق وسياسة. روسو، غروتوس، التوسيو، جون لوك، الخ، قاموا بتجريد على التاريخ وضد التاريخ أيضاً. تاريخياً لا يوجد مرحلة بشر أفراد ثم كَوْنوا مجتمعاً وسلطة

الخ. "التجريد" يعني أيضاً الفك والتحليل من أجل معرفة الواقع والراهن هذا الفكر الجبار يقبض على قطعة كبيرة، على آليات المجتمع، .. هذا الفكر ليس فكراً تاريخياً.  
بعكس الماركسية!

وبعكس آدموند برك!

آدموند برك يرفع لواء التاريخ والتاريخية. بل يمكن أن نضم نقده للفكر السابق إلى لائحة مصادر ومنابع المادية التاريخية الماركسية. كذلك "مدرسة الحقوق الألمانية" (فون سافيني) في أوائل القرن التالي والتي هي رجعية. هناك رجعيون آخرون وجهوا نقداً صحيحاً وثنياً لفكر القرن الثامن عشر وما سبقه، على خط التاريخ والتاريخية.

ونقل مبدئياً إن الماركسية، بوصفها مادية تاريخية وجدلية. ترد الاعتبار للعصور الوسطى بشكل صريح، ضد موقف فولتير والقرن الثامن عشر (وضد الكثيرين من طراز أدنى).

حسب الماركسية، ليس صحيحاً أنه لو وجد رجال الأنوار، "الفلاسفة" (فولتير، ديدرو، روسو، مونتسكيو الخ)، "العقل"، قبل عشرة قرون لوفرت البشرية على نفسها عشرة قرون من الضلال. ليس صحيحاً أن هذا العقل هو العقل، وأن ذلك التاريخ والواقع هو الضلال. ليس صحيحاً أن "الرأي (الأفكار) يسير العالم ويحكم العالم". ليس صحيحاً أنه لو انتصر حزب "اليسار" على حزب "اليمن" في الإسلام قبل كذا قرن لدخلت العروبة والعرب والعالم في الحق والعدل والمساواة بعيداً عن الضلال والآلام الخ. كل الكلمات، كلمات العنوان - مادية، تاريخية، جدلية، منطوق - تقول: هذا هراء. لا المساواة الاشتراكية ولا مجتمع عقل الأنوار هما خارج التاريخ والدنيا، خارج الشروط المادية المحددة والمحددة، جملة الواقع البشري، آلية تاريخ وبسط وتعاقب. مرة أخرى، نظام الرق كان تقدماً. ومسيرة صعود أوروبا (ق5- ق12) من البربرية إلى الإقطاعية، مسيرة تشكل عالم الزراعة والإقطاع والمدن والجامعات والكنيسة والرهبان الممالك القومية، هي مسيرة تقدم لا نظير لها (ونحن العرب نجهلها). أخيراً، ثمة فرق كبير بين المجتمع البرجوازي الظاهر والمجتمع الذي أرادته وحلم به مفكرو البرجوازية في عصر نضالها وصعودها.

برك يحارب الفلاسفة التجريديين بالتاريخية، أو بالأصح بتاريخية ما. من حيث الوقائع والحقائق، عنده صح وعنده باطل وتافه: المهم في نفسه هو هذا: كره المجرّد؛ "استفظاع المجرّد". Horreur de l'abstrait<sup>61</sup>.

يمكن أن نختصر منطقته على النحو الآتي: الحرية؟ . لا، هذا غير موجود وغير واقعي ولا علاقة له بالتاريخ. الحريات، حريات مختلفة، حريات هذه المدينة وحريات تلك المدينة؟ . نعم، هذا واقعي وتاريخي ومعقول. كذلك الحق والحقوق. حقوق مختلفة، حريات مختلفة، عقود وعهود

61 - جان جاك شفالية، مرجع مذكور.



مختلفة، لمدن، طوائف، جماعات، حالات، طبقات، أجسام، الخ مختلفة. أما "الحق"، عمومية الحق المتساوية، فهراء ميتافيزيقي، ومدمر. يمكن أن نضيف<sup>62</sup>: حقوق مختلفة لجنسي الرجال والنساء. الإنسان العام ميتافيزيقياً. لا أدري ما إذا وردت هذه القضية الأخيرة في السجال. لكن يستطيع برك أن يتخذ منها حجة إضافية: لماذا لا تدفعون حماقتكم الميتافيزيقية إلى هذا الميدان أيضاً، لماذا لا تساوون بمدخلتكم الرجل والمرأة؟ كان في زيارة سابقة لباريس وفرساي قد اشتمأ من جماعة الفلاسفة الفتاكين بوقائع الدنيا، وأعجب بجمال وظرف ونعومة الملكة الشابة (ماري أنطوانيت)، وهو يروي ذلك في كتابه... إزاء هذا الكره للمبادئ المجردة وهذا التمسك بـ "الوقائع"، لنذكر أن الموقف المقابل يتلخص<sup>63</sup> في: هذه هي المبادئ، وإذا كانت الوقائع مخالفة لها فتباً للوقائع tant pis pour les faits الوقائع هي الخاسرة ولنتصرف بالتالي هي أحس أو أسوأ. علماء "علم الطبيعة" لا يستطيعون أن يقولوا ذلك، أما علماء "الحق الطبيعي" وفلاسفة السياسة فيقولونه، وهو شعار الثورة. برك لا يشك في ذلك، لمسّه قبل الثورة، ثم رآه عند سقوط الباستيل، و"إلغاء الامتيازات" في ليلة شهيرة واجتماعية، وإهانة الجمهور. أي باريس، الشعب الجائع. للملك والملكة. بالمقابل، لنذكر قول هيغل: يريدون قلب العالم، بناءه على الرأس (على الفكر)، إنه فجر رائع. هيغل، تجاه الثورة الفرنسية وتمهيدها الفلسفي، وعى تماماً أهمية المبدأ التجريدي. هذا منطق للتاريخ، ولا يلغي التاريخ، بل بالعكس. هيغل يكشف، مثالياً، معنى عهد الإرهاب (حكم الفضيلة، محاولة تجاوز الواقع والتاريخ) والعهد الذي يليه (انفلات المجتمع المدني، البرجوازي، في وجهه السلبي: فساد، رشوة، إثراءات)، ثم الاستقرار: التاريخ حقق نقلة نهائية.

عملياً، الماركسيون كانوا، في الحاصل، دون مستوى الفهم الهيجلي المثالي. وذلك تحت تأثير "المادية" و"المادية التاريخية". لم يعوا جدياً مبدأ هيغل: "كل ما هو واقعي فهو عقلي، وكل ما هو عقلي فهو واقعي"، ولم يتوقفوا جدياً عند تعليق إنجلز على هذا الموضوع في الصفحات الأولى من لودفيغ فويرباخ. هذا ما سنعود إليه في نهاية هذه الفقرة.

ثمنواً، في مستوى الفلسفة، مادية القرن الثامن عشر مع إعلانهم ومعرفتهم أنها مادية ميكانيكية وميتافيزيقية، غير جدلية. وغير تاريخية. اهتموا بـ لامتري، هولباخ، هلفيسوس، ولحسن الحظ يدرو، أهملوا مونتسكيو وفولتير وروسو وآخرين، ربما باعتبار أن أولئك هم في إطار الفلسفة المحضة والحقيقية ومنتمون لمعكسر المادية ضد معكسر المثالية في "المسألة الفلسفية العليا التي قسمت الفلاسفة إلى معسكرين" (صيغة إنجلز). لم يعوا فعلياً قضية التجريد. ثمنوا الثورة الفرنسية من وجهة نظر التاريخية المادية ومسألة "الانتقال من نمط الإنتاج الإقطاعي إلى نمط الإنتاج الرأسمالي"، وربما أحسوا دائماً بأن هناك وجهاً آخر للمسائل، لكنه لا ينتقل إلى دائرة الوعي. فالثورة

62 - من زاوية الراهن العربي.

63 - انظر أرنست بلوخ، مرجع مذكور.

الفرنسية ثورة برجوازية (هذا صحيح لكنه لا ينهي المسائل إلا في المذهب الاقتصادي للتاريخ والواقع، أي في الاقتصادية، شكل الوضعانية الماركسية". أما مبادئ حقوق الإنسان، فالثورة البرجوازية خانتها. والثورة الاشتراكية؟... سننظر إلى هذه المسألة في حينها. لكن من الآن نقول: إنها هي أيضاً قضية الواقع والتجريد. فالاشتراكية. ككل المقولات. هي تجريد. دكتاتورية البروليتارية تجريد، عدم استثمار الإنسان للإنسان تجريد، حكم المجالس (السوفيات) تجريد، حزب الطبقة العاملة أو حزب الشعب بأسره تجريد... أي كلمات، صيغ الخ، مفاهيم. تبقى مسألة واقعيتها، إذن مسألة الواقع. هذا ما سندرسه في حينه.

الثورات البرجوازية، ثم حركة العمال، نقلت أوروبا إلى الديمقراطية، ديمقراطية برجوازية، بالتأكيد. "تاريخية"، بالتأكيد. لكن التاريخ لا ينحل في التعاقب. ولا المجتمع في علاقات الإنتاج والأيدولوجية. الموقع الأول من أجل معرفتهما هو المنطق. كمنطق بشري، على الوعي الماركسي أن يختار بين كونت وبرك وآخرين لا حصر لهم، من جهة، وخط هيغل والفلسفة الكبرى من جهة أخرى.

رجوعاً إلى أطروحة "كل ما هو واقعي فهو عقلي وكل ما هو عقلي فهو واقعي" في صدد التاريخ والثورة، وإلى الصفحات الأولى من كتاب لودفيغ فويرباخ، لنقل ما يلي:

إذاً، حسب منطوق نص إنجلز، اليسار الهيجلي (الهيغليون الشباب) تمسك بالشرط الثاني من الأطروحة الهيجلية، أي الشرط "المثالي": الأوضاع الألمانية مناقضة للعقل، إذا فهي غير واقعية، يجب أن تزول! واليمين الهيجلي (المحافظون) تمسك بالشرط الأول، "المادي": الأوضاع الألمانية واقع إذاً فهي معقولة وعقلية. الفريقان لم يفهما هيغل. الذي فهمه هو شخص مفرد، وهو... شاعر، الشاعر هاينريش هاينه. عند هيغل، ثمة فرق بين واقع، واقعي، حقيقي، فعلي /و/ موجود. "النظام القديم" في فرنسا 1789 كان موجوداً، بل موجوداً قوياً وفعالاً وساحقاً فوق ظهر البشر والتاريخ. تهاوى وسقط وتحطم في لحظة. هيغل أيد الثورة الفرنسية، وحلها وعقدها وعقلها، لم يتراجع يوماً عن تأييدها. ولئن كان له موقف آخر في بروسيا وألمانيا، فلأن ألمانيا هذه بكيوننتها كلها متأخرة عن فرنسا، 1789 ألمانيا متأخرة، وما تستحقه هو إصلاح، موناشرية دستورية، محسنة، فللفرنسيين ما يستحقون وللألمان ما يستحقون. وكما تكونوا يولى عليكم!! (لا أعتقد أن إنجلز قالها حرفياً، لكنه قالها!)،... والواقع تناقضي وصراعي، يقول إنجلز.

كلمة "واقع" لا يجوز أن تستسهل. حتى لو سميت الماركسية في عنوانها "واقعية" بدلاً من "مادية" لما تغيرت المسألة، ولما زالت الأخطار والالتباسات النظرية. لا توجد كلمات في القاموس البشري عاصمة عن الشطح والضلال. عن الذاتية الثورية أو المحافظة. ولئن وضعت، في حديثي أعلاه عن اليمين واليسار الهيجليين، كلمتي "مادية" و"مثالية" بين مزدوجتين، فليس لكي أقول:

"مادية" هؤلاء المحافظين ليست المادية الحقيقية بل هي المثالية الحقيقية، و"مثالية" أولئك اليسارية ليست هي "المثالية" بل هي ربما المادية، بل لكي أول:

"المادية" و"المثالية" (وأمثالها من كلمات كبيرة) هي حتماً موضوع التباس. الواقع ليس مادة، الواقع له صفة الممكن والإمكان، إذن صفة المفهومية والمثلية، في جوهره وحقيقته كواقع. هذا أولاً. وثانياً المثالية - أي الضلال - هي الذاتية، لا غير. العقل بمعنى هيغل ولينين عكس الذاتية. اليسار واليمين الهيجليان ذاتويان. لا مادية أو واقعية بدون العقل. كذلك في فلسفة وفكر عصر الأنوار والثورة الفرنسية، لكن مع الفرق: في الحاصل، هذا الحاصل أكثر امتلاء، وليس من قبيل الصدفة أنه أكثر شهرة من فكر اليسار الهيجلي. لكن هنا أيضاً، "العقل" يجنح نحو الذات البشرية ... ويصير، كما قلنا، عند الفريق الأكثر يسارية (هيبرت، شوميت) "الإلهة . عقل"

6 - ثمة ثلاث قضايا يجب إبرازها بين المذهبيين الوضعي والجدلي. ثلاث قضايا هي لب الموضوع، وهي غائبة عن الوعي الماركسي السائد، وغيبابها - على الأقل - يشده نحو المذهب الوضعي.

أولاً. المذهب الوضعي هو بحكم العنوان المذهب الإيجابي: positivism, positif، الجدل، بحكم التعريف، وهو جدل النفي، السلب، والثورية، ثورية هيغل، ثورية الجدل، مرتبطة بذلك. ستالين، في كتابه الفلسفي، استغنى عن النفي. وخفض مقولة التناقض إلى المرتبة الرابعة في عرض السمات الأساسية للجدل الماركسي. الوعي الماركسي العام يتذبذب بين التناقضية السان . سيمونية والمانوية، شكل التناقض غير المفهومي.

ثانياً: من أبرز مواصفات المذهب الوضعي كره المجرد، الإيمان الصممي بأن المجرد هو حتماً ابتعاد عن الواقع، استسهال فكرة الواقع والواقعية في المنطلق اللانقدي، الإيمان المبالغ بالعلوم والمعرفة العلمية، إضفاء نوع من قداسة عليها... مبدأ الجدل هو العمل الواعي بالمفاهيم. علم المنطق (حسب هيغل ولينين) ينطلق من مفاهيم مجردة كلية مستهدفاً في نهاية المسيرة الواقع كجملة عيانية. لينين يقول: إن التجريد، حين يكون جدياً، فلسفياً، علمياً، هو اقتراب من الواقع وليس ابتعاداً عنه. لنقل: التجريد اقتراب من الواقع، ذهاب في عمقه أي في الكونية، والمعقولية. هكذا القيمة مثلاً. وهذا ليس كل الموقف لكنه جانب منه، ومبدأ. حين نقول القيمة، قولاً جدياً، فإننا، مباشرة، قبضنا على علاقة، علاقة مساواة وهوية، تخطينا المحسوس والمباشر والأشياء الرمزية، دخلنا إلى (كوني)، وقبضنا على مباشر، هو تبادل جار بين هاتين السلعتين. الوعي الماركسي السائد أقرب إلى المذهب الوضعي.

ثالثاً. فكرة التطور التي تخرج من قانون الحالات الثلاث أو من تطويرية سبنسر هي فكرة تطور خطي. الفكر البرجوازي الغالب يجمع فكرة التقدم الخطي وفكرة أن المجتمع البرجوازي - بمعنى ما - هو المجتمع الطبيعي الأزلي نافعاً صفته التاريخية، إذاً العابرة. الوعي الماركسي السائد والمساجل

ضد الفكر البرجوازي ركز جهده بشكل عام ضد النقطة الثانية باسم التاريخية في خدمة الاشتراكية الوشيكية، ولم يهتم بالنقطة الأولى، بل بالأصح تبناها شكلاً وغير المحتوى: أضاف علاقات الإنتاج، النظام الاقتصاد - الاجتماعي. الفكر البرجوازي أبرز التقنية والتكنولوجيا، الإنتاج والصناعة، قوى الإنتاج (من سيكون إلى أيامنا مروراً بالقرن التاسع عشر)، وهذا موقف صحيح، لكنه أبرز هذه الجوانب على حساب علاقات الإنتاج. الشكل الخطي للتطور واحد: إنه فكرة مسيرة زمانية ذاهبة إلى أمام ونحو الأفضل، مهما "تجدلنت" هذه الحركة (الحركة بمعنى علم الميكانيك: هذه النقلة، هذا "الانتقال من ... إلى").

جدل ماركس (وهيغل . لينين) ليس كذلك: شكل، تشكل، تغيير أشكال، تشكيلة، انحلال أشكال تشكيلات، وحلول غيرها محلها، تعاقب.. في الزمان . مع تطور دائري. وفكرة الدائرة والدورة... نفي النفي.

خلاف الماركسية مع هيغل (ضد هيغل) ليس حرباً من الماركسية على فكرة وكلمة "مصالحة" وفكرة وكلمة "تركيب" *synthèse* وانحيازاً لفكرة وكلمة نفي النفي *mégativ* كمنابذية ورافضة لـ "تركيب". إنجلز الشاب، وماركس الشاب وراه يقولان عن هدف المشروع الثوري الكلي "تصالح الإنسان مع ذاته ومع الطبيعة". ولم يتراجعا عن هذه الفكرة في يوم من الأيام.

فكرة الدائرة الرئيسية في فكر هيغل، وماركس وإنجلز ولينين، وهي كذلك كمذهب مادي ومذهب جدلي سواء بسواء. "مادية" فلسفية بلا الدائرة: هذا هراء. "جدلية" فلسفية بلا الدائرة: هذا هراء. تاريخية تقدم حقيقي بلا "الدائرة" هذا هراء.

الطبيعة دائرة، تاريخها دائرة. هكذا المذهب المادي، أو هذا بموجب المذهب المادي. حسب خاتمة "مدخل" إنجلز إلى جدل الطبيعة: كل شيء فان، تاريخي ومتغير وفان، المادة ومحمولاتها أرضية، والفكر أحد هذه المحمولات؛ المجموعة الشمسية والكرة الأرضية سوف يفنيان (بموجب علم الفلك، أو لنقل الفيزياء الفلكية أو التاريخ الطبيعي للسماء الذي دشنته نظرية كنط ولابلاس)، لكن الفكر، الذي سيفنى، سيعود ولو بعد مليارات السنين، في مكان ما من الكون الخ.

هيغل أيد ثبات الأنواع الحية، أي العالم؛ كوفييه والتصور الميتافيزيقي الثباتي للأنواع، ضد لامارك. مع داروين، انتهى الإشكال، وانحسنت المسألة لصالح التطور والنشوء والارتقاء. الماركسية مع هذا الموقف، الذي هو - عدا ذلك - خط قديم وجديد في الفكر البشري (أرسطو؛ ديدور، هيغل، ابن طفيل). لكن هذه الحقيقة، في الوعي الماركسي العام (تأكيد هذا الخطأ لـ هيغل)، ساعدت على لفظة فكرة الدائرة كمفهوم فلسفي وككلية كونية، لصالح الخط المستقيم، الذاهب إلى الأمام، رغم "التعرجات"، ورغم "الانتكاسات" في "المسيرة" و"التقهقرات".

هيغل نفسه، من جهة أخرى، شطح في التقدم، لم يواجه بشكل كاف وجددي الثبات في التاريخ، والتقهقرات الكبيرة؛ الصيرورة تعدت، بشكل متجاوز، على الكينونة؛ الصير والصابر على الكون

والكائن؛ الكائن - العدم على الكائن (هذا الكائن خارج الرأس، بتمامهما)؛ "هيراكليت" على "بارمنيد"، إذن على بارمنيد وخلافته: أفلاطون، أرسطو، الخ. هذا التعدي، هذا "التجاوز للحد" هو مثالية. والمثالية ذاتوية. ولينين يحاربها: يحاربها في قراءته لـ هيغل، في تتلمذه على يد هيغل، سنة 1916. الوعي الماركسي العام ظل بعيداً عن هذه القضية. إن لم يتركب بصيرورة هيراكليت - هيغل، فبدافع مع "الواقعية" و"الإدراك السليم"، وانركب بـ "التقدم".

الدائرة، الدوران، الخ فكرة رئيسية في نصوص متنوعة لأئمة الماركسية الثلاث. التبادل السلعي دوران، التداول دوران rotation, circulation بهذا الدوران، المال مال، ينمو ويحيا. بهذا الدوران الدائم المال رأسمال (سلعة . مال . سلعة)، بهذا الفناء الدائم لذاته كشيء، يكون كحقيقة، كشيء حقيقي، كقضية، في الدنيا الحقيقية، التي ليست أشياء + سماء. وتلك اللانهاية التي لا تبلغها الأشياء في التقدم propusions تبلغها الأشياء في الدوران rotation" حسب غالياني الإيطالي كما ينقله ماركس في علم الاقتصاد السياسي، وإنجاز في جدل الطبيعة. (ينقلان الجملة بالإيطالية، و، بين جملة أمور، كأنهما ينطربان بها!).

لا طبيعة بلا دائرة: هذا أمر مفهوم ومقبول، في الوعي الماركسي العام. لكن أيضاً، لا تاريخ طبيعة ولا تاريخ طبيعي بلا دائرة: هذا هو المرفوض في الوعي المذكور، البائس، المؤمن بالتقدم. لنقل إذاً: إن التقدم الجدلي الماركسي هو "التقدم الدائري"، ولنقل، ضد هذا "العقل" الناقص في الجذر، الذي لا يرتفع من مستوى الفهم entendement. Verstant والتفكر المحاكم discursive إلى مستوى العقل vernunft لنقل أن هذه الصيغة - "تقدم دائري" - صيغة متناقضة!.

فكرة الثورة تتضمن، كجانب مهم، فكرة "الرجوع إلى بدء"؟، وعدم رؤية أي جانب آخر. بالأصح: رجوعها ليس إلى بدء ومبدأ، إذاً إلى بدء ومبدأ من أجل تقدم هو بسط جديد، بل هو رجوع، إلى ماض ما. إذاً هذا لماضي - أياً كان - يؤسطر، و(خصوصاً) يصنم رغم أنف المنطق والواقع والتاريخ.

حسب لينين (مقالة حول الجدل، 1916)، تاريخ الفلسفة دوائر؛ لينين يلتمس تاريخ الفلسفة كدوائر. لأن للتاريخ منطق! هذا ما يجب تثمينه وفهمه عند هيغل، قبل أي نقد واكتشاف لأخطاء وضلالات على "التفاصيل". هذا النقد كله لـ هيغل، بدون الدراسة والفهم والتثمين، نقد غير مؤسس، نقد باطل في المنطق الحقيقي، ومنبع باطل وبواطل لا حصر لها، "وصية" لينين الفلسفية، في شأن هذا الواجب إزاء هيغل وإزاء الجدل واضحة وصريحة وحادة. كل مسيرة الفكر الماركسي التالية ذهبت بعكسها!

لينين يتكلم أيضاً عن جملة، كل، وعن "سيغما" (مصطلح رياضيات) أي عن فكرة مجموع أو حاصل جمع تتضمن وتقتضي وتفترض فكرة اللانهاية. فكره السياسي كله، سجاله ضد الرفاق في

أقصى اليسار، قائم على هذا الأساس: تحليل اللامتناهيات، حساب التفاضل والتكامل، أي قضية العياني (العياني الذي - كما يقول لينين ضد بياتاكوف في سنة 1916 - ليس "العصر"، "عصر الإمبريالية". وجهة نظر العياني أكبر بكثير في تضمناها. من وجهة نظر "العصر"!).

دائرة، دوائر، دوران، "دائرة من دوائر" (لينين)... إن الوعي الماركسي العام ركب على "الخط الحلزوني" هكذا كتب الشراح (من باريس، أو من موسكو). هكذا رد فعل الماركسي النموذجي، حاضراً، إذا ما فاتحناه عن هذا الموضوع. يمكن أن يكون دوكتوراً في الفلسفة، دكتوراً ماركسياً في الفلسفة الماركسية، وأن يكون رد فعله الفوري: "خط حلزوني"، الخط الحلزوني لافظاً للدائرة! يمكن أن يساجلك، أن يعلن عدم وجود نصوص للأئمة فيها "الدائرة"... مقال جاك دوندت شاهد على أن هذه الحالة عامة. وليست محلية.

هذه مصيبة "الخط الحلزوني". عملياً، إنه يخدم رفض الدائرة، أي الأخذ بالخط المستقيم، الذي وهذه سماحة إيجابية. يمكن أن يتعرج وأن ينتكس.

خط حلزوني، خط مستقيم، دائرة. لنقل، كمقارنة بين هذه الفكرات الثلاث، إن الفكرة الأولى هي، بالأحرى، صورة أو استعارة تتوخى توحيد المفهومين التاليين البسيطين، لغرض تعليمي، لكن مع التأكيد على المفهوم. الأخير: الدائرة. الخط الحلزوني أقرب إلى الدائرة منه إلى الخط المستقيم، كأشكال محسوسة وهندسية. يمكن أن يرسمها على الورقة. الخط الحلزوني، بخلاف الخط المستقيم، له مركز، كالدائرة، وينطلق من هذا المركز، دائرياً. توسيعياً، إنه إذاً في اللانهاية الجيدة (الدائرة، الدوران)، وليس في اللانهاية السيئة، المستحيلة، الواصلة إلى نهاية العالم أو لا نهايته.

لنقل إن الدائرة أو الدوران فكرة شرقية عامة، لكن أيضاً، بعد ذلك، يونانية وأوروبية، قديمة ووسيلة وحديثة. التصور الشرقي العام للتاريخ، والتصور اليوناني، وتصور ابن خلدون يشتركون في الدائرية. أوغسطين (ق4-5) دشن الموقف الخطي، لاهوتياً وخلصياً. وهذا محرز نهائي. لكن بدون أن يستغني عن الدائرة. العصر الإيجابي هو الذي استغنى.

واقع أن الدائرة فكرة شرقية، غير تقدمية، غير ذاهبة إلى الأمام، يجعل معظم التقدميين العرب يطردونها من فكرهم: إنه سبب مهم في ها الطرد، سبب أيديولوجي. يضاف إلى السبب الغنوزيولوجي: غياب فكرة المنطق من أساسها، وتوحيد الوجهين الاثنين يعطينا أيديولوجية "منطقية" واحدة، يمكن أن تدعى: "مادية تقدمية". وهي صيغة باطلة كيفما قلبناها، إنها non-sens هذه "المادية" التي لم تحل مسألة أفلاطون، التي ظلت دون مسألة أفلاطون أو واقعية المثل، لا يمكن أن تكون تقدمية، كنظرية معرفة ومنطق.

فكرة الدائرة شرقية؟ هذا محرز نهائي للإنسان العاقل، ومأثرة شرقية لا نهاية لها.

لكن لنقل أيضاً، وبالمقابل، إن فكرة "اللانهاية السيئة" والمطلق المستحيل وما شابه هي أيضاً يمكن أن توصف بالشرقية، المصريون التمسوا الخلود بالإهرامات، الحجم الكبير، الارتفاع الشاهق

الى ...، لكن المحدود حتماً، الذي له حد ونهاية. الهنود عبروا عن كلية القدرة والعمل للإله بإعطائه في تماثيلهم أذرع وأيد "كثيرة"، لكن معدودة حتماً. هذا عبث!<sup>64</sup> اليونانية والرومانية، والمسيحية البادئة والمنطلقة من فلسطين وجوارها المباشر، دشنت لحناً آخر: الجوانية، الجوانية والكونية. الروح بمعنى جديد (غير مادي، غير ذري) وبمعان متضاربة، المفهوم ومنطق المفهوم... والتاريخ دوائر وتقدم.

---

64 - حسب شروحات هيغل. انظر غارودي، فكر هيغل (دار الحقيقة) وهيغل، المختارات، في جزءين (دار الطليعة).

## الأعمال الكاملة

### 1- المؤلفات

- 2- الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر، دار الطليعة (1959) (ص128،+).
  - 3- صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، دار الدراسات العربية (1960) (مع علي الزرقا). (ص240).
  - 4- في الفكر السياسي (ج1)، (أتاسي، زهور، الحافظ، مرقص). مرقص: الستالينية والمسألة القومية، دار دمشق، (1963).
  - 5- في الفكر السياسي (ج2)، (ص177). مرقص: تداعي النظام البرلماني (ص25) + ترجمة مقال جيل مارتينه (ص22) + الافتتاحية غالباً، دار دمشق (1963).
  - 6- موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي، دار دمشق (1963/45)، (ص78+).
  - 7- تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي، دار الطليعة (1964) (ص312 ++).
  - 8- الماركسية في عصرنا، دار الطليعة (ط1، 1965، ص248) (ط2، 1969، ص383 مع ملحق بإضافات) (+++).
  - 9- نقد الفكر القومي عند ساطع الحصري، دار الطليعة (1966) (+++).
  - 10- الماركسية والشرق، دار الطليعة (1968) (ص704) (+++).
  - 11- الماركسية والمسألة القومية (مناظرة مع بسام طيبي؟)، دار الطليعة (1970) (ص254) (+++).<sup>65</sup>
  - 12- حول الضرورة التاريخية لنشوء حزب البروليتاريا العربي. (نظرية الحزب عند لينين والموقف العربي الراهن)، دار الحقيقة (1970).
  - 13- الماركسية اللينينية والتطور العالمي والعربي، دار الحقيقة (1970) (ص440) (+++).
  - 14- نقد الفكر المقاوم (ج1).
- عفوية النظرية في العمل الفدائي، دار الحقيقة (1970) (ص350) (+++) (ج2) مخطوط.

<sup>65</sup> - ((+)) قياس (20/14)سم، (+++) أكبر.



- 15- المقاومة الفلسطينية والموقف الراهن، دار الحقيقة (1971) (ص127) (++)
- 16- في الأمة والمسألة القومية، دار الحقيقة (1971) (ص240) (+++). (مرقص، رودنسون، توما).
- 17- الماركسية السوفياتية والقضايا العربية المعاصرة. دار الحقيقة (1973) (+++).
- 18- المذهب الجدلي والمذهب الوضعي (1991)، غالباً المخطوط تم إنجازه عام (1982)، وبدون إعادة أو مراجعة كما يبدو من المخطوط.

## 2- الترجمات

- 1- ماوتسي تونغ: الثورة الصينية، دار دمشق (1955) (ص64) (++) .
- 2- لينين: الماركسية، الثورة والاشتراكية، دار دمشق (1957) (ص79) (++) .
- 3- بليخانوف: فلسفة التاريخ والمفهوم المادي للتاريخ، دار دمشق (1957).
- 4- هوكياومو: ثلاثون عاماً من حياة الحزب الشيوعي الصيني، دار دمشق (1957) (ص158) (++) .
- 5- أوسكار لانجة: الطريق البولوني إلى الاشتراكية، دار دمشق (1958) (ص51) (++) مع مقمة (7ص). (المقدمة 15/2/1958).
- 6- لينين: حركة التحرر الوطني في الشرق، دار دمشق (1958) (ص240) (++) مقدمة (ص18).
- 7- كارل ماركس: مختارات من المؤلفات الأولى 1842-1846، دار دمشق (1964) (++) مقمة (ص30)، شروح (ص13).
- 8- وثائق من الحزب الشيوعي في مصر وسوريا ولبنان (1931): الأممية الشيوعية والثورة العربية، دار الحقيقة (1970) (ص176) (+) مقمة (ص35) بتاريخ (1966/9/25).
- 9- كارل ماركس، مخطوطات 1844 الاقتصادية والفلسفية، وزارة الثقافة (1970) (ص338) (+++).
- 10- الكومنترن والقضايا العربية 1930، دار الحقيقة (؟) (ص208) (+++).
- 11- لينين: الدفاتر الفلسفية، (3 أجزاء)، دار الحقيقة (1973)، ط1\* (1983، ط2). (565 ص) (++)، مقمة حوالي (130ص).
- 12- برونوباور وكارل ماركس: حول المسألة اليهودية، دار الحقيقة (1973) (ص802) (+++) مقمة (ص40).

- 13- كتاب يهود: الشعب الفلسطيني، اللاسامية، الصهيونية، اليهودية ومحاكمة الغرب، دار الحقيقة (1974) (ص323) ((++). مقدمة، شروح، ملاحظات (ص40).
- 14- لودفيغ فيورباخ: مبادئ فلسفة المستقبل، دار الحقيقة (1975) (ص327) (++) مقدمة وشروح (ص180).
- 15- روجيه غارودي: فكر هيغل، دار الحقيقة (1975 ط1) (1983 ط2) (ص285) (++)، مقدمة (ص45) مصطلحات وملاحظات (ص15).
- 16- أوغست كورنو: ماركس وأنجلز، حياتهما وأعمالهما الفكرية (ج3+ج4) دار الحقيقة 1971 (+++).
- 17- هيغل: مختارات (ج1+ج2)، دار الطليعة (1978 ط1) (1989، ط2، π). (ص400) (+++).
- 18- محاورات جورج لوكاكش مع أساتذة ألمان غربيين، دار الطليعة (1978) (ص113) (+++).
- 19- بلتيه وغوبلو: المادية التاريخية وتاريخ الحضارات، دار الحقيقة (1979). (++).
- 20- أرنيست بلوخ: فلسفة عصر النهضة، دار الحقيقة (1980) (ص200) (+++). مقدمة (ص30).
- 21- روجيه غارودي: من اللعنة إلى الحوار، دار الحقيقة (1980) (ص110) (+).
- 22- جان جاك شفالييه: المؤلفات السياسية الكبرى، من ماكيافل إلى أيامنا، دار الحقيقة (1980) (ص390) (+++).
- 23- مييل دوفيز: أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ج1، دار الحقيقة (1980) (ص304) (+++). (ج2) مخطوط لدى الدار.
- 24- لوسيت فالنسي: المغرب العربي قبل 1830، دار الحقيقة (1980) (ص184) (++).
- 25- جورج لوكاكش، تحطيم العقل 4 أجزاء، دار الحقيقة (1980) (ص632) (+++).
- 26- جوليت منس: المرأة في العالم العربي، دار الحقيقة (1971) (ص132) (+++). مقدمة.
- 27- مكسيم رودنسون: جاذبية الإسلام، دار التنوير (1982) (ص123) (++).
- 28- جوران تربرون: سلطة الأيديولوجيا وأيدلولوجيا السلطة، دار الوحدة (1982) (ص163) (+).
- 29- كارلو شيبولا: التاريخ الاقتصادي لسكان العالم، (π) (1990) (ص160) (++) مقدمة (ص20).

### 3- المقالات<sup>66</sup>

- 1- دراسات عربية:
- 1- مسلسل عن المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي؟<sup>67</sup>
- 2- مقالان في عرض ونقد تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني 1968؟
- 3- مقالات مسلسلة في نقد برنامج الحزب الشيوعي السوري..؟
- 4- ترجمة مقال أنجلز: انحدار الاقطاعية وانطلاق البرجوازية (1974). شروح.
- 5- ترجمة مقالة كيدروف دور المادية المناضلة.؟
- 2- الواقع: الافتتاحيات، مقالات وترجمات في الأعداد 1- 2- 3- 4.
- 3- الوحدة: 6 مقالات 84/85/86. وندوة هوركهايمر: العدد التجريبي.
- 4- السفير: مسلسل سبع مقالات 1981، العنوان الأصلي (كون طائفي، مجتمع، مدني، حقوق الإنسان).؟
- مقال في ذكره ياسين الحافظ الأول.
- مجلة الآداب، بيروت: الإنسان،العقل والتاريخ، ندوة تونس . الغزو الثقافي . 1982 . "المعرفة".
- نشرة "الثورة العربية" مقال عن الديمقراطية والليبرالية.
- الفكر الاستراتيجي العربي: ثورة 23 يوليو، العدد الأول.
- المصباح: مقال عن عبد الناصر (38ص).
- مقدمة كتاب ياسين الحافظ، المسألة القومية والديمقراطية.

### 4- المخطوطات

- 1- مؤلفات:
- 1- الجزء الثاني من نقد الفكر المقاوم.
- 2- تاريخ الأحزاب الشيوعية.
- 3- ضد "قيس الشامي".
- 4- ضد التوسير. كتاب كبير عنوانه "الممارسة ونظرية المعترفة (عملية التوسير ضد الماركسية). مفقود في بيروت.؟

66 - ... بشكل تقريبي، إلى أن يتم جمعها ونشرها.

67 - استناداً إلى أحاديث مع الأستاذ الياس مرقص.

5- نقد "المادية الجدلية والمادية التاريخية" حوالي (1500 صفحة). جاهز منذ حوالي (1985-1986).

6- ندوة تونس "العقلانية العربية واقع وآفاق" دراسة نقدية للندوة حوالي (1200ص).

7- المغايرة، الكون والتاريخ. حوالي (70ص).

8- اليمين الجديد (77ص). (1985).

9- دراسة حول الخط الفكري لمجلة الوحدة (1985).

10- مع جبرائيل سعادة. (50ص).

2- الترجمات:

1- ريمون آرون: "كلاوسيفيتس، فكر الحرب" جزءان.

2- العبودية. مقدمة وشروح؟

3- القرى الأولى في بلاد الشام؟

4- ماريو ليفراني: الملكية السورية في عصر البرونز (36ص).

## -5-

مجموعة حوارات مسجلة، كاسيت، حوالي 80 ساعة. (1984-1900). تشمل المواضيع التالية:

السيرة الذاتية، مفهوم الثورة، التقدم، الأسس الروحية لحقوق الإنسان، البروسترويك، اللغة واللغة العربية، غارودي، لينين، أزمة الخليج، اللاهوت، النقلات المطلوبة، فحص الكلمات، الإمبريالية، الناصرية وتاريخ العرب المعاصر.

## الفهرس

- الفصل الأول: القضية والمسألة
- الفصل الثاني: المذهب الوضعي بحصر المعنى
- الفصل الثالث: الحالة الميتافيزيقية
- الفصل الرابع: الثورة، التقدم، التجريد
- الأعمال الكاملة